

د. مصطفى الغاشي

الرحلة المشرقية

لمحمد بن يحيى الصقلي

دراسة و تخريج



الرحلة المشرقية

لمحمد بن يحيى الصقلي

د. مصطفى الغاشي

الرحلة المشرقية

لمحمد بن يحيى الصقلي

دراسة و تخريج



الرحلة المشرقية

لمحمد بن يحيى الصقلي

دراسة و تخريج



د. مصطفى الغاشي



ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت ـ لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-610-4

الطبعة الأولى 2015

المحتويات

المقدمة 9

دراسة الرحلة 13

مدخل تاريخي 13

محمد بن يحيى الصقلي والرحلة المشرقية 1928 – 1929 14

من هو محمد بن يحيى الصقلي 14

الرحلة المشرقية 17

في الدوافع والأسباب 17

من طنجة إلى إسطنبول 19

إسطنبول: في العهد الجمهوري 20

نص الرحلة 29

وداعاً وإلى الملتقى 29

من طنجة إلى مرسيليا 35

مرسيليا 37

بيرة فسالونيك 43

سالونيك 46

الأستانة العلية 51

الأستانة العلية وحالتها الاجتماعية 52

الأستانة 55

الأستانة 57

الآستانة 62

متحف طوب قبواسراي 63

الأستانة 67

الأستانة العلية 71

الرحلة الشرقية 74

المصادر والمراجع 75

فهرس الأعلام البشرية 79

فهرس الأماكن الجغرافية 83

فهرس الآيات القرآنية 87

المقدمة

مع مطلع القرن العشرين عرف العالم العربي والإسلامي سلسلة أحداث خطيرة أقحمته في أزمات بنيوية ومؤسساتية : سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ـ فكرية ودينية، امتدت آثارها حتى القرن الواحد والعشرين:

فمن جهة أولى أصبح الوضع الداخلي هشًّا ومتهرئًا غابت فيه الدولة وتعطلت آليات الاقتصاد وتخرب المجتمع بقيمه وأفكاره.

ومن جهة ثانية تحولت الأطماع الأوروبية إلى استعمار متحكم في كل مظاهر الحياة العامة التي كانت لها تداعيات خطيرة وعميقة على البنى والمؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وتوزعت المنطقة العربية بين القوى الاستعمارية الأوروبية وخصوصًا بعد ضعف وتراجع الإمبراطورية العثمانية (الرجل المريض).

وشكل انهيار نظام الخلافة العثمانية من حيث هو نظام حكم سياسي إسلامي عمر عقودًا طويلة، أحد مظاهر وضعية الأزمة ونتيجة لها، مع ما يعنيه ذلك من خلخلة للبنى والأفكار، واختلاف ردود الأفعال الداخلية ما بين مؤيد ورافض، فإذا كان المؤيدون يتشكلون من نخبة قومية علمانية مدعومة من القوى الغربية ينظرون إلى دولة عصرية مدنية، فإن الرافضين تشكلوا من القوى الدينية بالدرجة الأولى ثم من بقية فئات الشعب العربي الإسلامي بالدرجة الثانية يحتجون من جهة على إلغاء الخلافة الإسلامية ويطالبون من جهة ثانية بنظام حكم إسلامي.

وقد انعكس التوجهان معًا في كتابات القرن العشرين لدى المؤرخين ورجال الدين والساسة والمفكرين بحيث عرفت الساحة السياسية والفكرية سجالات عنيفة استخدمت فيها كل النعوت السلبية والقدحية والتكفيرية، وتحولت مواضيع الدولة والحكم والأمة والعلمانية والديمقراطية... إلى مواضيع الساعة بامتياز..

وفي المغرب وبحكم انتمائه وهويته العربية والإسلامية، وعلى الرغم من المسافة التي تفصله عن المشرق، تأثر بدوره بمخاض الشرق الأوسط السياسي والفكري مع نوع من

الخصوصية بحكم استقلاليته عن الخلافة العثمانية. وعلى الرغم من ذلك فقد تأثرت وتفاعلت النخبة المثقفة التقليدية لمغرب الحماية وبشكل متفاوت مع أحداث المشرق العربي وانعكس ذلك في كتاباتها لدى كل من محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، وعبد الحي الكتاني، ومحمد بن يحيى الصقلي... الخ. والشيخ العربي العلوي وعلال الفاسي والمختار السوسي وعبد الله كنون... الخ.

إلا أن الرحلة المشرقية لمحمد بن يحيى الصقلي (ت. 1935) تمثل نصًّا فريدًا لا نجد له مثيلاً في التراث المغربي المكتوب، فهو قبل كل شيء رحلة إلى تركيا تمّت أحداثها بعد فترة قصيرة من إلغاء الخلافة الإسلامية من قبل مصطفى كمال أتاتورك مؤسس الجمهورية التركية الكمالية، نشرت على صفحات جريدة السعادة من قبل شخص لم يتمّ التعريف به بالشكل الكافي، ثم إنها (الرحلة) اكتشاف لهذا المولود السياسي الجديد (الجمهورية التركية الكمالية) سواء بالنسبة إليه كمثقف مغربي أو بالنسبة إلى مغاربة الحماية عبر جريدة السعادة أو جريدة الحماية.

ثم إنها من حيث الدوافع والأسباب وكما عبر عن ذلك محمد بن يحيى الصقلي: تعريف المغاربة بواقع الأتراك المسلمين بعد قيام الجمهورية التركية بقيادة مصطفى كمال أتاتورك. ومن حيث ردود الأفعال تعبير رافض لمشروع الدولة التركية العلماني، ولعل مضامين الرحلة تعبير واضح عن ذلك خصوصًا من خلال المواقف التي عبر عنها الصقلي وتحديدًا ما تعلق بالدين ووضعية المرأة الجديدة ومعاناة العلماء. إلا أن هذه الصورة وعلى الرغم من سلبيتها تعايشت معها صورة أخرى عن العاصمة إسطنبول، صورة تعكس الدولة الحديثة والأنظمة والمؤسسات الجديدة وفق ما هو معمول به في الغرب الأوروبي، وفي هذا السياق تبدو صورة الدولة المدنية اللائكية حاضرة بشكل واضح في مواقف وتصريحات محمد ابن يحيى الصقلي.

وليس هناك شك أنها ليست المرة الأولى التي يكتشف فيها المغاربة تركيا والعاصمة إسطنبول، فقد تحدث عنها ابن بطوطة في رحلته ووصفها ببلاد الروم كما ذكرها الأندلسي ابن الصباح الذي مكث فيها ما يزيد عن أربع سنوات طلبًا للعلم. ووصفها علي التمكروتي في النفحة المسكية على عهد المنصور الذهبي، وقدم ابن عثمان المكناسي وأبو القاسم الزياني في رحلتيهما السفاريتين خلال القرن الثامن عشر وصفًا دقيقًا لعاصمة كبرى (هي الدنيا).

أما محمد بن يحيى الصقلي وإن وصل إلى تركيا في فترة ما بعد الخلافة العثمانية، فقد اختارها وجهة لراحته وسياحاته وركب البحر للوصول إليها، بل خصص الجزء الأكبر من رحلته للحديث عن اسطنبول ولم يخف إعجابه بتركيا عمومًا والعاصمة على الخصوص.

أما بالنسبة إلى عموم المغاربة وعلى الرغم من الطابع العلماني للدولة التركية فإن

الإعجاب والافتتان والتعلق بها لم يتغير إلى اليوم بل نما وتطور خصوصًا بعد النجاحات السياسية الكبرى التي حققها حزب العدالة والتنمية التركي في العشر سنوات الأخيرة. فالكل يتذكر موقف أردوغان من حصار غزة، وزيارته التاريخية إليها، واستقباله في تركيا لقائد حماس إسماعيل هنية، واختراقه لحصار غزة المعروف بحادث السفينة. أما على المستوى الاقتصادي فالمغاربة يتابعون ما حققته تركيا اقتصاديًّا: فهي تحتل مواقع محترمة في الاقتصاد العالمي مع نسبة نمو جد مرتفعة. أما من الناحية الاجتماعية فقد تحسنت وضعية المواطن التركي بعد تحسن دخله المالي. أما فنيًّا فالمغاربة تذوقوا روعة الأفلام التركية الناجحة مثل وادي الذئاب، وحريم السلطان أو القرن العظيم، والعثمانيون، وملحمة فتح القسطنطينية...الخ. بالإضافة إلى الزيارات المنظمة الفردية والجماعية إلى العاصمة اسطنبول.

وبالعودة إلى الرحلة المشرقية لمحمد بن يحيى الصقلي وعلى الرغم من صغر حجمها فقد تمكن صاحبها من تقديم ورصد التحولات العميقة في تركيا بين العهد الإمبراطوري العثماني والعهد الجمهوري العلماني، فإذا كان من خلال الرحلة مدافعًا عن دولة الخلافة المندحرة ومعارضًا للطابع العلماني اللائكي فقد كانت زيارته إلى تركيا فرصة للاطلاع على الجديد ـ الحداثة ـ والمدنية بالرغم من كل السلبيات التي سجلها على نظام الدولة الجديدة التي أنشأها مصطفى كمال أتاتورك.

فالعلاقة إذن بين المغاربة والأتراك ذات جذور تاريخية عميقة يتقاطع فيها السياسي بالاقتصادي والثقافي بالديني ويتقاسمان الفضاء المتوسطي ويشكلان لكليهما عمقًا استراتيجيًّا متينًا يمكن أن يكون أرضية لمستقبل مشترك. وليس هذا بالأمر الصعب خصوصًا إذا عدنا إلى التاريخ المشترك حيث نجد نماذج من سياسات التعاون بين المغرب والدولة العثمانية في عهد عبد الملك السعدي وأحمد المنصور وعهد محمد بن عبد الله العلوي. ونعتقد أن الظروف الحالية للمغرب وتركيا سواء على المستوى الإقليمي أو الدولي هي لمصلحتهما لتشكيل تكتل سياسي ـ اقتصادي لمواجهة التحديات الكبرى التي تواجه المنطقة.

د. مصطفى الغاشي

طنجة في 16 مايو/ أيار 2013

ملاحظة: نص الرحلة من ص 29 حتى آخر الكتاب فيها الكثير من الأخطاء النحوية واللغوية وقد أثبتناها كما وردت في جريدة السعادة حرفياً.

دراســة الرحلــة

مدخل تاريخي

عرف المغرب مع بداية القرن العشرين توقيع معاهدة الحماية (1912) التي أخضعته للوصاية الفرنسية المباشرة، وبذلك يكون المغرب قد دخل مرحلة جديدة من تاريخه السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي شهدت أوضاعًا تميزت بالغليان والثورات ومقاومة المحتل كرد فعل على ما أقدمت عليه فرنسا وإسبانيا من تقسيم المغرب وإخضاعه سياسيًّا وإداريًّا وعسكريًّا. وفي هذا السياق يمكن التذكير بثورة أحمد الهيبة ماء العينين في الجنوب ما بين 1912 ـ 1919، وثورة موحا اوحمو الزياني في الأطلس المتوسط إلى حدود 1920 . وكذلك ثورة محمد بن عبد الكريم الخطابي بقبائل الريف التي ظلت مستمرة إلى غاية 1926 . . .[1] وإذا كانت فرنسا وإسبانيا استطاعتا من خلال قوتيهما العسكريتين أن تسيطرا موقتًا على المغرب في الشمال والجنوب، فإن ذلك قد ساهم إلى حدٍّ كبير في إذكاء مشاعر المقاومة ضد الاستغلال والاحتلال. وهو الشعور الذي تمت ترجمته إلى الواقع من خلال مواجهة الظهير البربري عام 1930، والذي كان يسعى إلى ضرب وحدة الشعب المغربي من خلال الفصل الاستعماري بين الأمازيغيين وسكان الحواضر وإلحاقهم بالمحاكم الفرنسية[2]. وهو ما يعني

---

(1) حول هذه الظرفية التاريخية يمكن العودة إلى الدراسات التالية: إبراهيم السولامي، **الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية 1912 - 1956**. دار الثقافة، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء. بدون تاريخ. ص 28 - 30.

علي طعمة، **المغرب - حضارته، حقيقته، تاريخه**، مؤسسة الهيثم للصحافة والطباعة والنشر، بيروت، لبنان. بدون تاريخ. ص 25.

(2) إبراهيم السولامي، المرجع السابق. ص 30 - 32/ إسماعيل محمد الرشيد، **جلاء الظلام الدامس في موجز تاريخ المغرب إلى عصر محمد الخامس**، مطبعة فضالة، ط.2. 1957. ص 176.

بأن الاستعمار لم يكن آلة عسكرية فقط بقدر ما كان مشروعًا ثقافيًا وحضاريًا يرمي إلى إحداث تغييرات عميقة في البنى الثقافية والاجتماعية والحضارية للمغرب.

محمد بن يحيى الصقلي والرحلة المشرقية 1928 - 1929

في ظل هذه الأوضاع الخطيرة من تاريخ المغرب وخلال هذه المرحلة الحرجة التي تلت فرض الحماية بأبعادها المختلفة جرت أحداث رحلة محمد بن يحيى الصقلي إلى إسطنبول ما بين عامي 1928 ـ 1929 مما يعني أولاً أن هذه الشخصية تنتمي إلى عصر متقلب ومضطرب، ثانيًا أنها شاهدة إلى حدّ ما على خصوصيات العصر ليس في بعدها الوطني فحسب وإنما الدولي أيضًا وهو ما سوف نلاحظه في تفاصيل الرحلة.

من هو محمد بن يحيى الصقلي

نعترف بداية بأننا لا نتوفر على معلومات بيوغرافية كافية حول هذه الشخصية وهو ما يعني أن جوانب مهمة من حياته تبدو غامضة خصوصًا فيما يتعلق بانتماءاته الاجتماعية والثقافية والسياسية التي من شأنها أن تلقي الكثير من الضوء على رحلته المشرقية، فخير الدين الزركلي يعرفه بأبي عبد الله محمد بن يحيى الصقلي ينتمي إلى فاس، كانت إقامته ووفاته بمدينة الدار البيضاء عام 1354/ 1935م[1]، في حين نجد محمد حجي يعتبره فقيهًا وأديبًا وكاتبًا وشاعرًا وناقدًا[2]. إلى ذلك يضيف عمر رضا كحالة[3] بأن يحيى الصقلي كان رحالة من آثاره رحلة إلى بلاد تركيا نشرتها جريدة السعادة في حلقات[4]. ونجد في «معجم المطبوعات المغربية» بأن محمد بن يحيى الصقلي ترك مصنفات هي:

- الخريدة الغيداء في وصف الدار البيضاء.
- تنبيه المستبد حيث على جهله يعتمد. فرغ منه في محرم 1326هـ بآخره ثلاثة تقاريظ، طبع بفاس عام 1326هـ في 7 صفحات[5].

---

(1) خير الدين الزركلي، **الأعلام**. م.7. دار العلم للملايين، بيروت، لبنان 1979. ص 143.

(2) محمد حجي (تنسيق وتحقيق) **موسوعة أعلام المغرب**. ج.8. دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.1. 1996. ص 3043.

(3) عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، ج.3. ط.1. 1993. ص 767.

(4) عبد السلام بن سودة، **دليل مؤرخ المغرب الأقصى**، المطبعة المنشية بتطوان. ط.1. 1950، ص 399.

(5) إدريس بن الماحي الإدريسي القيطوني الحسني، **معجم المطبوعات المغربية**، مطابع سلا، 1988. ص207.

● نبل الأماني بتشطير قصيدة أم هاني، طبع بمراكش عام 1343هـ في أربع صفحات.

والصقلي معروف كصاحب المكتبة الشرفية بالدار البيضاء، وصاحب جريدة «تنبيه المستبد» التي كانت تطبع بمطبعة الدويب بفاس، أصدرها عام 1906. وهذه الجريدة تعتبر من أهم الإصدارات التي صدرت خلال ظهور ما سمي «بالمسألة المغربية»، وقد اعتبرها زيد العابدين الكتاني بكونها «... تضيف وعيًا سياسيًّا وتفهمًا وواقعية للظروف والأحوال التي كان يمر بها المغرب...»[1]

ويبدو من خلال هذه المعطيات من حياة محمد بن يحيى الصقلي أنه لم يلق الاهتمام الكافي من البحث، هذا على الرغم من قيمة ما تركه من تراث خصوصًا رحلته المشرقية التي نحن بصددها في هذه المداخلة، والتي نعتقد أنها سوف تلقي بعض الأضواء على هذه الشخصية في بعدها الثقافي.

(1) زين العابدين الكتاني، **الصحافة المغربية: نشأتها وتطورها 1820 - 1912**، ج.1. مطبعة فضالة، المحمدية. ص 203 - 204.

الرحلة المشرقية

نشير في البداية إلى أن الرحلة المشرقية نشرها محمد بن يحيى الصقلي بجريدة السعادة[1] ابتداء من يوم الخميس 17 جمادى الأولى 1347هـ الموافق فاتح نوفمبر/تشرين الثاني 1928، ثم انتهاء عند عدد السبت 13 رمضان 1347هـ الموافق 23 فبراير/شباط 1929م[2]. وعلى الرغم من أن رحلة محمد بن يحيى الصقلي معرفة بالرحلة المشرقية، فإنه عنون كل عدد بعنوان مختلف تماشيًا مع طريق الرحلة.

- العدد الأول: «وداعًا إلى الملتقى»
- العدد الثاني: «من طنجة إلى مرسيليا»
- العدد الثالث: «مرسيليا».
- العدد الرابع: «بيرة فسالونيك»
- أما الأعداد المتبقية فقد خصصها للحديث عن إسطنبول ومشاهداته بها[3].

في الدوافع والأسباب

والملاحظ في هذه الرحلة أن صاحبها الصقلي وإن كان قد نشر الجزء المتعلق بتركيا

---

(1) جريدة سياسية أدبية اقتصادية فلاحية أسسها مولاي محمد بن إدريس الجزناوي الجزائري بتعاون مع اللبناني وديع كرم. مطبعة فضالة، المحمدية 1989. ص 166.

(2) محمد المنوني، **المصادر العربية لتاريخ المغرب**. ج.2. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

(3) تجدر الإشارة إلى أن جريدة السعادة أعدادها متفرقة بين المكتبة العامة بالرباط والمكتبة العامة بتطوان ومكتبة داود بتطوان أيضًا. إلا أن وزارة الثقافة قامت أخيرًا بنسخ جميع أعداد هذه الجريدة في قرص مدمج، إلا أنه أولاً لم يعمم بشكل رسمي مما يعرض هذا التراث الغني للتداول العشوائي والقرصنة، وثانيًا سيئ من الناحية الفنية والتقنية.

فإن جولته شملت مناطق شرقية أخرى وهي مصر وسوريا وفلسطين[1]، إلا أنه أصرّ على نشر القسم الخاص بتركيا على صفحات جريدة السعادة «رغبة في تعريف المغاربة بواقع الأتراك المسلمين بعد قيام الجمهورية التركية بقيادة مصطفى كمال أتاتورك»[2]. ويبدو أن عمل الصقلي كان مقصودًا، فقد كان متتبعًا لما يجري في المحيط الإسلامي وتحديدًا تركيا وخصوصًا بعد الثورة التي قادها مصطفى كمال أتاتورك، والتي أعطت لتركيا هوية جديدة مناقضة لهوية دولة الخلافة. ويمكن أن نعتبر رحلة الصقلي هذه نوعًا من رد الفعل العربي ـ الإسلامي على ما قام به مصطفى كمال أتاتورك عند إعلانه إلغاء الخلافة الإسلامية وما ترتب عليه من غضبة عارمة لدى الشعوب العربية ترجمها البعض إلى كتابات رافضة لمشروع أتاتورك وردود فكرية وسياسية اعتبرت المشروع لائكيًّا يناهض الديانة الإسلامية، وهذا ما تعكسه رحلة الصقلي عند حديث صاحبها عن مشاهداته بإسطنبول. وتعتبر الرحلة المشرقية أحد النصوص النادرة في المغرب التي ردّ أصحابها على ما قام به مصطفى كمال أتاتورك من إلغاء الخلافة.

كما أن نشر أخبار هذه الرحلة على صفحات جريدة السعادة قد يكون القصد منه تزويد القراء بأخبار عن دولة كانت بالأمس تحكم الجزء الأكبر من العالم الإسلامي (الدولة العثمانية) خصوصًا إذا أخذنا في الاعتبار قوة الحدث الذي هزّ مشاعر المسلمين داخل دار الإسلام. ومنذ تلك اللحظة ودولة تركيا في واجهة الأحداث والصحف العربية والإسلامية. ولعل ما يؤكد هذا التوجه الدوافع والمواقف التي دفعت الصقلي للقيام بهذه الرحلة والتي ذكرها في رحلته، فقد قصد «التدبر والاستطلاع وترويح النفس وترويضها، وربط أواصر المعاملة مع أهم المطابع والمكاتب، والتنقيب عن نفائس الكتب الطبية والمطبوعات المهمة وذلك من أجل تنشيط العلم. وأملاً في نيل بعض الراحة والمعافاة، وزيارة الأماكن من أجل التقدم والعرفان والاستفادة من النبغاء الأفذاذ»[3]. ويكشف هذا التصريح أولاً عن جانب مهم من شخصية الصقلي المهتمة بالكتب والعلم وما ارتبط بهما، وثانيًا استمرار الشرق كفضاء للثقافة والفكر، والتقدم (بالنسبة إلى الرحالة).

(1) حسب محمد المنوني رحمه الله فإن الرحلة بأكملها ما زالت في حوزة أسرة الصقلي بالدار البيضاء.
(2) محمد المنوني، المرجع السابق. ص 238.
(3) محمد بن يحيى الصقلي، الرحلة الشرقية، **جريدة السعادة**، ع: 3312، 1928. ص 1.

من طنجة إلى إسطنبول

انطلقت رحلة الصقلي من ميناء مدينة طنجة الدولية يوم 23 أكتوبر/ تشرين الأول 1928 على متن باخرة «طامبورة» TAMBOURA التي تحركت عند الساعة الثانية عشرة ظهرًا باتجاه ميناء مرسيليا التي وصلها الصقلي عند الساعة الواحدة من يوم 25 أكتوبر/ تشرين الأول حيث استغرقت الرحلة تسعًا وأربعين ساعة. وبعد يومين بهذه المدينة (الخميس والجمعة) امتطى الصقلي يوم السبت في الساعة الثانية مساء باخرة يونانية اسمها باتريس دو التي تحركت عند الساعة الرابعة مساء لتبحر طوال يومي الأحد والاثنين بمحاذاة الشواطئ الإيطالية وجزيرة صقلية. وقبل أن تصل الباخرة إلى ميناء بيرة باليونان عند الساعة العاشرة من صبيحة يوم الأربعاء 31 أكتوبر/ تشرين الأول بعد ما مرت على جانب الشواطئ اليونانية وملتقى بحر اليونان وبحر إيجة. وقد تحركت الباخرة بعد ذلك يوم الخميس فاتح نوفمبر/ تشرين الثاني عند الساعة السابعة مساء باتجاه سالونيك، وفي الغد أي يوم الجمعة عند الساعة الثالثة والنصف وصلت الباخرة إلى مدينة سالونيك، ثم بعد ذلك القسطنطينية[1]. والواضح من هذه الطريق أنها تعكس جوانب من التحولات التي عرفها الإبحار بحوض البحر الأبيض المتوسط حيث صار الاحتكاك بين ضفتي المتوسط قويًا وهو ما كان يسمح بتواصل أكبر بين شعوبه ولعل الظروف التي واكبت الرحالة منذ خروجه من ميناء طنجة واحتكاكه بعناصر أجنبية تؤكد ذلك. فخلال طريقه إلى مرسيليا تعرف إلى اثنين من التجار الفرنسيين استأنس بهما في الطريق.

وقبل وصوله إلى الآستانة كان برفقته هولنديون وألمان وإنجليز ويونان وترك، وكان يجد لذة في التواصل معهم باللغة الفرنسية التي كان يتقنها. وهو بهذه المناسبة يوجه نداء إلى المغاربة يدعوهم إلى تعلم اللغة الفرنسية وإتقانها إذ يبدو من خلال الرحلة أن اللغة الفرنسية

---

(1) نفسه، الأعداد 3312 - 3359.

كانت لغة المتوسط «... ـ إذ بها كنت أجد القدرة على مخاطبة كل الرفاق من هولنديين وألمان وإنجليز ويونان وترك وكل أجنبي عنا والتعبير عن أفكاري والاستفهام عن المواطن والأشياء التي أريد أن أتعرفها فقليل من وجدته لا يعرفها...»[1].

وخلال وجوده بهذه المدينة قدم الصقلي وصفًا دقيقًا لمرافق المدينة (العدد الثالث) وبعض الأحداث التي عرفتها خلال وجوده فيها مثل: دار الحلو التجارية المغربية، وإضراب عام لعمال المرسى مما اضطره للانتقال إلى باخرة يونانية «باتريس دو» المسافرة إلى الآستانة عبر بيرة فسالونيك... كما يسجل ما تعرض له بميناء بيرة حيث لم يسمح له بالنزول لزيارة أثينا بسبب اللباس المغربي اعتقادًا منهم أنه تركي (لباس الطربوش). والصقلي بذلك يؤرخ مرحلة من العداء والصراع التركي اليوناني (العدد الرابع) خلال الربع الأول من القرن العشرين. وعلى الرغم من عدم السماح له بالنزول، قدم الصقلي وصفًا للأجواء التي تعرفها مرسى بيرة وبعض العادات التي يتميز بها اليونانيون (حمل السبح التي لا تتجاوز مائة حبة)[2].

يقول محمد بن يحيى الصقلي عند دخول الباخرة إلى ميناء بيرة اليوناني: «... صعد إليها الكمساري لفحص الجوازات وإعطاء الرخصة بالنزول للبر فتقدمنا إليه ليرخص لنا بذلك رغبة في الذهاب إلى أثينا للتفرج عليها وعلى متاحفها وآثارها القديمة فأنعم أولاً ثم عاد فامتنع ولا سبب أوجب ذلك المنع إلا لباسي المغربي الذي لم أغيره (وجلابتي وطربوش)، واليونانيون حزازتهم وكراهيتهم نحو الأتراك شهيرة ويظنون كل لابس للطربوش تركي وحتى الآن لا يسمحون للأتراك بوطئ تراب أرضهم إلا إذا كانوا من القناصل أو ممن لهم أشغال رسمية مع حكومتهم...»[3].

إسطنبول: في العهد الجمهوري

مع وصول محمد بن يحيى الصقلي إلى إسطنبول بدأ يسجل مشاهداته وارتساماته حول الدولة التركية والمدينة وهو بذلك يسجل التحولات التي طرأت على المجتمع التركي. فقبل أن تطأ قدمه أرض المدينة بدأت الإجراءات الأمنية على ظهر الباخرة التي تعكس السياسات الجديدة المتبعة في الجمهورية التركية الكمالية: «لما ألقت الباخرة مرساتها بميناء الآستانة بقينا

---

(1) نفسه. عدد 3325.

(2) نفسه.

(3) نفسه.

في انتظار الكومسار نحو النصف ساعة حتى أتى وبرفقته اثنان من أعوانه ودخلوا صالة الكتابة وصار خدمة الباخرة يعلمون الركاب الذهاب إليه فدخلنا عليه فرادى فوجدناه جالسًا جانب المائدة وعلى يساره المدونان أحدهم بيده ورقة عريضة والآخر بيده دفتر والكمسار يتناول من كل أحد جواز سفره ثم يسأله من أين أتى وعن جنسيته وعمره وأين ولد وبأي محل يكون نزوله والذي بيده الورقة يكتب ومن بيده الدفتر يبحث فيه عن كل اسم وهكذا حتى استغرق ذلك مدة أكثر من ساعة...»[1].

ويسجل الصقلي بأن الإجراءات الأمنية لم تنته عند الإجراء الأول فهو يذكر عند الخروج من باب الباخرة إيقافه من قبل عونين من الأمن يفحصون الجوازات للمرة الثانية، وهذا كله إشارة إلى شدة الإجراءات الأمنية في الدولة التركية الحديثة[2].

يتحدث محمد بن يحيى الصقلي بافتنان كبير عن إسطنبول «... الآستانة العلية والقسطنطينية العظمى شهيرة الذكر عميمة الفخر ذات العظمة التي لا يدرك شأوها والجمال المتناهي الذي يحار العقل في تصور كنهه ويعجز قلم أبلغ البلغاء عن وصف بعضه...»[3].

ففيما يتعلق بالجانب الهندسي والمعماري يذكر الصقلي بأن الآستانة تنقسم إلى ثلاث مدن كبيرة وهي: غلطة، وإسطنبول، وبيرة. كما تضاف إليها أقسام حضرية أخرى يذكر منها الصقلي أيوب سلطان، وسكوتاري، وقاضي كري،... إلا أن الصقلي يقف طويلاً أمام المواقع الثلاثة الأولى، فعن إسطنبول يقول الصقلي: «فهي المدينة الشرقية وبها أهم المناظر الشرقية من المساجد والمدارس والمآثر العجيبة يفصلها عن غلطة وبيرة القرن الذهبي وطرق من البوسفور...»[4] وتتميز المدينة بمنازلها الفخمة وأغلبها من الخشب تتكون من ثلاث أو أربع طبقات. أما أسواقها «ففي منتهى البهاء والجمال كل سوق يخص حرفة من الحرف كما هو عندنا بفاس لكن هنا أبدع وأكبر». أما بخصوص الطرق فهي متسعة ـ يقول الصقلي ـ مرصوفة بالحجر المنحوت المربع[5].

---

(1) يبدو من خلال هذه الرواية أن السلطات التركية كانت تبحث عن مطلوبين قد يكونون مناوئين للسلطة الجديدة (ومن بيده الدفتر يبحث فيه عن كل اسم). نفسه ع 3328.

(2) بعد هذه الإجراءات جاء دور الديوانة والتفتيش. نفسه.

(3) نفسه. ع 3329.

(4) نفسه.

(5) نفسه. يعتبر الصقلي بأن الأسعار في الأسواق هي مثل المغرب، وأن غير التركي قد يتعرض للسرقة خصوصًا في سوق الكتب. انظر عدد 3329.

وعن غلطة يقول الصقلي: «إنما هي أجمل دورًا وأغزر تجارة»[1]. وبالنسبة إلى بيرة «فهي ذات عمارة كبيرة ودور ضخمة بديعة على الطراز الحديث وبها يقطن العظماء والأغنياء وسفراء الدول وبها النزه العظيمة... وبكل قسم وحارة منها له إدارة خاصة به من البلدية والبوسطة ومركز البوليس حتى أنه يفوق العشرين قسمًا...»[2]

ويبدو من خلال الوصف الذي يقدمه الصقلي استمرار إثارة مدينة إسطنبول لإعجاب الزائرين، هذا بالرغم من التحولات التي طرأت عليها سياسيًّا واجتماعيًّا. إلا أنها تعكس أيضًا مستوى التقدم الذي تحقق في المدينة منذ الثورة الكمالية. يقول الصقلي واصفًا بعض مرافقها «والبوسطة التي دخلتها بقسم الشركسي بإسطنبول فخيمة البناء شاهقة العلو قبتها شامخة الارتفاع عظيمة الاتساع ومن مستخدميها السيدات التركيات أيضًا»[3].

وبالإضافة إلى البوسطة يتحدث الصقلي عن المدارس والكليات المنتشرة في كل أرجاء المدينة، كالمدرسة العسكرية، والكلية الطبية، وكلية طب الأسنان، وكلية الحقوق، وكلية التجارة... مما دفع الصقلي إلى القول: «بأن تركيا أمة راقية رقيًا باهرًا بينًا»[4].

في حديثه عن الجانب الديموغرافي للمدينة يذكر الصقلي بأن عدد السكان يتجاوز 800 ألف نسمة، «كلهم يلبسون القبعة إلا أئمة المساجد والوعاظ والخطاب فإنهم يلبسون العمامة ولكن بيدهم رخصة من الحكومة بلبسها وقليل ما هم»[5] وفي هذا إشارة إلى التحولات التي فرضها مصطفى كمال أتاتورك، والتي ميّزت عصره بشكل كبير.

إلا أن اللافت للانتباه بالنسبة إلى الصقلي هو «اللباس الرسمي من إداري وعسكري وبوليسي فإنه كأعظم ما يكون عند الأمم الراقية العظيمة...» وفي هذا إشارة واضحة إلى مظاهر الحداثة التي أخذت بها الجمهورية التركية. ولم يفت الصقلي الإشارة إلى النساء فقد وجدهن «سافرات الوجوه إلا ما ندر منهن وأغلبهن رائعات الجمال وذوات لطف ورقة»[6].

---

(1) نفسه. عدد 3329.

(2) نفسه.

(3) نفسه.

(4) نفسه. يصف الصقلي مناخ اسطنبول بالمعتدل وبه رطوبة وشديد التقلب وما يدفع سكانها إلى لبس أدفأ الثياب، وماؤها عذب، وهي كثيرة النعم. انظر عدد 3329

(5) نفسه.

(6) نفسه.

ومن مزايا الواقع التركي الجديد ـ كما يلاحظ الصقلي ـ الأنظمة الجديدة المعمول بها في تركيا والتي تتميز بالتشدد خصوصًا في التعامل مع الأجنبي أو الزائر، وفي هذا السياق يقول الصقلي: «أما النظام فقد تجاوز الحد من النفوذ والشدة والربط حتى أن الإنسان إذا أراد الخروج من أرضهم والإياب إلى وطنهم وبيده رخصة سفره مصادق عليها من طرف قناصلهم ومصححة من جانب بوليسهم عند الدخول يحتاج إلى الذهاب إلى قسم بوليس ناحية نزوله وتجديد الرخصة وأن يعطيهم ثلاث صور له ويدفع رسمًا نقديًّا وبعدها يأخذ رخصة من البوليس يذهب بها إلى الولاية وهناك يأخذون رخصة السفر مع الورقة ويعطوه موعدًا بأخذها به وعند استلامها يدفع رسمًا نقديًّا أيضًا ولقد صادفنا صعوبة ومشقة من أجل ذلك...»(1). إن الإجراءات التي يتحدث عنها الصقلي تعكس شدة الاحتياطات الأمنية التي أعقبت الثورة الكمالية التي فرضت على البلاد هوية الأنظمة التوتاليتارية الشمولية، كما تعكس الظروف الإقليمية والدولية التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، وميلاد الجمهورية التركية الحديثة.

ويستطرد الصقلي في الحديث عن الواقع التركي الجديد بالحديث عن الإجراءات الجديدة التي تشكل بالنسبة إليه تحولات خطيرة في دار الإسلام. فبالنسبة إلى لبس العمامة فالأمر مرخص فقط للأئمة والخطباء والوعاظ شريطة أن تكون لهم رخص خاصة، وفي حالة المخالفة فإن صاحبها يتعرض للعقوبات.

«ومن وجد لابسها وليس بيده رخصة يسوقه البوليس للاستنطاق ويحاكم وكذلك من وجد من الوعاظ بمسجد يعظ الناس فيتعدى الحدود المقررة له في الوعظ يُزجر ويعاقب، أما تدريس العلوم الدينية من فقه وحديث وكذلك تعليم القرآن بالمكاتب والمدارس للأولاد منع منعًا باتًّا»(2). ونتيجة لهذه السياسة العلمانية يذكر الصقلي بأنه علم: «أنه كان من طلبة العلوم الدينية بالآستانة وحدها أزيد من عشرة آلاف طالب ذهبت لحال سبيلها وحيل بينها وبين ما ترغبه»(3) ويضيف أيضًا بأنه علم «أن كثيرًا من العلماء الكبار حكم عليهم بالسجن من عشر سنين فأقل ومنهم من حكم عليه بالإعدام لأسباب دينية...»(4). والصقلي كرجل متدين أولى

(1) نفسه. ويعتبر الصقلي بأن الضرائب في تركيا مرتفعة إلا أنه يراها مبررة فهي أساس نهضة تركيا وقوة جندها.

(2) نفسه. عدد 10 يناير/كانون الثاني 1929، عدد 3340.

(3) نفسه.

(4) نفسه.

اهتمامًا خاصًا لمثل هذه المواضيع بل تتبعها حتى على المستوى الإعلامي. وفي هذا الإطار يقول: «ورأيت إنذارًا بالجرائد من الحكومة يحض فيه الأئمة والمؤذنين وخدمة المساجد أن يتعلموا الكتابة بالحروف اللاتينية ومن لم يتعلمها منهم في مدة معينة يرفض من وظيفته»[1].

ومن الإجراءات الأخرى التي شاهدها الصقلي في تركيا والتي جاء بها الجمهوريون تغيير عناوين المحال إلى اللغة اللاتينية بدل العربية: «ثم إن القوم في شغل شاغل بالآستانة لتغيير عناوين محلاتهم من الكتابة بالأحرف العربية إلى اللاتينية في أي محل مررت أجدهم منهمكين في ذلك»[2].

ونتيجة لهذه التحولات الجديدة كما شاهدها الصقلي اختفاء التدين من المجتمع التركي حتى إذا تعلق الأمر بالمساجد: يقول الصقلي: «أما من جهة التدين فقد أديت الفريضة بمساجد عدة فلم أر من حاضري صلاة الجماعة بها إلا النزر اليسير، ومن العجب أنني رأيت النساء يصلين مع الرجال وهن سافرات الوجوه»[3]. ويضيف الصقلي بأن السياسات الجديدة مست أيضًا الطرق الصوفية والزوايا فقد «تلاشت وذهبت لحال سبيلها والزوايا والمزارات أغلقت غلقًا نهائيًا»[4]. وحسب الصقلي دائمًا فإن الإجراءات الجديدة كانت تشمل حتى المساجد، ففي أحد الحوارات التي جرت بينه وبين أحد الضباط السامين في تركيا فقد أخبره هذا الأخير بأن «المساجد بعد سنة ستغلق ويمنع الدخول إليها لأجل الصلوات...»[5]. ومن خلال الرد على هذا الضابط التركي نكتشف النقد الذي يوجهه الصقلي إلى المسؤولين والسياسة التركية الجديدة يقول: «فقلت له: لأي سبب هل النهوض والتقدم يكون بغلق المساجد وجحود الدين، وإذا كان الأمر كذلك فلأي شيء الدول العظام بكافة القارات الأرضية مثل إنجلترا وفرنسا واليابان وأمريكا وهن ما هن من غزارة العلم وضخامة الملك والتفوق في كل شيء بميادين العمل لم يفعلوا شيئًا من ذلك، فالنهوض له مقتضيات أخرى جوهرية والتقدم أهم شرط من شروطه حرية الأديان والمعتقدات...»[6].

لاشك أن الواقع الذي يتحدث عنه الصقلي يناقض كليًا ماضي هذه الدولة حيث الدولة

(1) نفسه.
(2) نفسه.
(3) نفسه.
(4) نفسه.
(5) نفسه.
(6) نفسه. في الواقع من خلال هذا التصريح نكتشف الفكر النهضوي والحضاري لمحمد بن يحيى الصقلي.

العثمانية ببعدها الديني كدولة الخلافة، ومن ثم فإن الصقلي يعبر ضمنيًا من خلال عرض مشاهداته عن رفضه أو أقله عن استنكاره لبعض المظاهر: يقول: «وهم يتجاهرون بشرب المسكرات الكحولية بالمقاهي، ذهبت ليلة لمقهى مع أحد العلية لأتفرج على جوق طرب تركي وهو مقهى من أهم المقاهي لا يؤمه إلا علية القوم فلم أر واحدًا ممن دخله طلب شيئًا خلاف مسكر كحولي...»[1].

خلال الفترة الطويلة التي قضاها الصقلي بإسطنبول زار عددًا كبيرًا من المواقع التي تجعل من هذه المدينة إحدى أجمل مدن الدنيا، فكما كانت إسطنبول في العهد العثماني فاتنة الزوار استمرت أيضًا في الحاضر (حاضر الصقلي). إلا أن الصقلي يقرن جمال المدينة الشرقية بجمال مساجدها ومآثرها يقول الصقلي: «وأهم شيء وأجلّه وأتمه محاسنًا ينبغي رؤيته والتحدث عنه هو المساجد، فلو وفق الإنسان وأعطي فصاحة قيس واقتدار الجاحظ على التعبير وفلسفة ابن رشد وحكمة ابن سيناء وبراعة ابن خلدون لما قدر على وصف جزء يسير ما هي عليه من الجمال والرونق والبهاء والعظمة والثراء، إنه شيء يحير العقل...»[2]. وانسجامًا مع ذلك زار الصقلي معظم مساجد إسطنبول بالإضافة إلى المتاحف. ومن أهم المساجد التي زارها الصقلي وتحدث عنها بإعجاب وافتنان، مسجد أيا صوفيا «فوجدناه مسجدًا تحار في كنه عظمته وبهائه وبديع صنعه العقول»[3]. كما زار مسجد السلطان محمد الفاتح الذي وصفه بقوله: «فوجدناه من عجائب الدنيا... به خزائن حفيلة بها من نفائس الكتب الخطية شيء كثير وعلى الأخص مجموعة مصاحف قلمية على الرق... عدد الكتب التي بها ثمانية ألف وتسعمائة...»[4]. كما زار الصقلي جامع السليمانية نسبة إلى سليمان القانوني: «الحاصل ـ كما يقول الصقلي ـ أنه لآية الآيات وأعظم المآثر الباهرة»[5]. وأثناء وجوده بإسطنبول زار الصقلي مسجد السلطان بايزيد، ومسجد علي باشا عتيق وزير السلطان سليمان القانوني، ومسجد السلطان عثمان الثاني، ومسجد السلطان أحمد الأول الذي اعتبره الصقلي «من أهم وأعظم وأفخم المساجد»[6].

---

(1) نفسه. يتحدث الصقلي في رحلته عن التجارة والصناعة في تركيا إلا أنه يعتبرها في ركود فهل ذلك نتيجة تداعيات الأزمة العالمية لعام 1929، انظر عدد 10 يناير/كانون الثاني 1929، عدد 3340.

(2) نفسه.

(3) نفسه. 12يناير/كانون الثاني 1929، عدد 3341.

(4) نفسه.

(5) نفسه.

(6) نفسه. تفاصيل وصف هذا المسجد نجدها في العدد 3341.

وإلى جانب هذه المساجد زار الصقلي مسجد رستم باشا وزير السلطان سليمان القانوني فهو كما يقول: «من الإشارات النفيسة» وكذلك مسجد وضريح أبي أيوب الأنصاري الذي يقول عنه الصقلي «فهو من جملة الأماكن التي أغلقت»(1) نتيجة للسياسة الجديدة للكماليين.

أما فيما يتعلق بالمتاحف فقد زار الصقلي بعضًا منها كمتحف طوب قابي سراي الذي بناه السلطان محمد الفاتح، وكانت به سكنى أغلب السلاطين العثمانيين، فهو كما يقول الصقلي: «يضم التحف والمخلفات السلطانية منذ عهد نشأة الدولة العثمانية(2)، وقد أفاض الصقلي في عد ووصف محتوياته ومكوناته بشكل دقيق وبارع. وقد زار الصقلي متحف الآثار أيضًا «فرأينا به من آثار القرون الأولى والأعصر الخالية من تماثيل وأصنام وأضرحة وهياكل وأواني ونقود وأدوات وسلاح وغير ذلك مما يطول شرحه»(3).

وبعد هذا المتحف زار الصقلي المتحف الشرقي الذي يوجد به «تمثال لمصطفى كمال من البرونز منتصب القامة عاري الرأس عجيب الصنعة»(4).

كما زار الصقلي المتحف العسكري الذي يضم مختلف «أنواع الأسلحة والذخائر الحربية التي استعملها ملوك آل عثمان وما غنموه من حروبهم من كافة الأقطار والأجناس من عهد تأسيس دولتهم إلى الآن»(5) هذا بالإضافة إلى ما غنمه مصطفى كمال أتاتورك «رأينا به من أصناف المدافع وأنواع البنادق وأقواس النشاب والسيوف والأسلحة والطبول والدرق والدروع والرماح والعجلات وأكسية الجنود والرؤساء وأحذيتهم والبيارق والأعلام للأتراك ولكافة العناصر التي حاربوها في مختلف الأعصر الشيء الكثير الذي لا حصر له»(6).

ويذكر الصقلي بأنه رأى بفسحة غلطة تمثالاً لمصطفى كمال وعن يمينه عصمت باشا وأركان حربه وهو ما يرمز إلى الحرية والدفاع عن الوطن لكن أيضًا تقديس القائد والثورة.

---

(1) نفسه. زار الصقلي مساجد أخرى عديدة ذكر منها مسجد الصحابة، ومسجد عرب جامع، ومسجد بني جامع...

(2) نفسه. 22يناير/كانون الثاني 1929، عدد 3345.

(3) نفسه. 29 يناير/كانون الثاني 1929، عدد 3348.

(4) نفسه.

(5) نفسه. 12 فبراير/شباط 1929، عدد 3345.

(6) نفسه.

في الختام

فقد زار الصقلي ـ مثقف مغرب الحماية ـ العاصمة التركية خلال فترة حرجة أي المرحلة الانتقالية من دولة الخلافة ـ الدولة العثمانية ـ ببعدها التاريخي والديني إلى الجمهورية التركية ببعدها العلماني والقومي، وهو الحدث الذي أحدث رجة كبرى داخل تركيا والوطن العربي، ولذلك فقد سعى الصقلي من خلال تدوين رحلته ونشرها بجريدة السعادة إلى إطلاع الرأي العام المغربي على ما حدث في تركيا من انقلاب جذري غيَّر هوية الدولة والمجتمع. وفي هذا السياق تبقى شهادته وثيقة بالغة الأهمية عن المرحلة وعن الواقع التركي بعد إعلان الجمهورية العلمانية من حيث هي دولة شمولية ترفض كل المظاهر الدينية سواء على مستوى الفرد أو الجماعة. إلا أن الرحلة تقدم إسطنبول أيضًا كعاصمة فاتنة وهو ما يعني استمرار لعب هذه العاصمة دورها كعاصمة عالمية بما يتوافر لديها من مآثر ومتاحف تثير من خلالها مشاعر الافتتان (seduction) والغرابة (l'exotisme).

نص الرحلة

وداعاً وإلى الملتقى

أكتب هاته الكلمة وأنا على أهبة النزوح عن الوطن من فرضة طنجة [1] الجميلة، وامتطاء متن الباخرة «طامبورة» قاصداً الديار الشرقية مصر وسوريا وفلسطين وتركيا عن طريق مرسيلية، قصد التدبر والاستطلاع عملاً بقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ﴾[2]، واستجلاباً لترويح النفس وترويضها، وربط أواصر المعاملة مع أهم المطابع والمكاتب، والتنقيب عن نفائس الكتب الخطية والمطبوعات المهمة وغير ذلك مما يروق في أعين أفراد شعبنا المغربي الكريم، خدمة له وتنشيطاً للعلم الشريف الذي لا حياة بدونه، وأملاً في نيل

(1) طنجة: مدينة ساحلية، تقع على مضيق جبل طارق، كانت من أكبر المدن المغربية في العهد الروماني، استولت عليها البرتغال سنة 1471 م، وإثر وفاة ملكها دون سباستيان وضم مملكته إلى التاج الإسباني، وضعت طنجة تحت السلطة الإسبانية من سنة 1581 إلى سنة 1643 م، وفي هذه السنة عادت طنجة إلى السلطة البرتغالية حتى عام 1661 م، حيث انتقلت المدينة إلى الحكم الإنجليزي بعد أن سلمتها البرتغال مهرًا من كاترين دي براجانصي إلى شارل الثاني ملك إنجلترا، ولم تفتر المقاومة المغربية للاحتلال الأجنبي للمدينة حتى تم استرجاعها سنة 1684 م في عهد المولى إسماعيل العلوي. أنظر:
ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، 1977، ج 4، ص 43.
الوزان الحسن: **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط 2، 1983، ج 1، ص311 - 313.
الحميري محمد: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط 1، 1975، ص395 - 396.
Le Chatelier Alfred: **Notes sur les villes et tributs du Maroc en 1890**, Angers imprimerie, a Burdin, 1902.
حركات إبراهيم: **المغرب عبر التاريخ**، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط 3، 2002، ج 1، ص 57 - 58، وج 3، ص 43 - 46.

(2) سورة العنكبوت: الآية 20.

بعض الراحة والمعافاة مما ألم بالجسم من الأغيار، لقوله صلى الله عليه وسلم: «سافروا تصحوا وتغنموا وتزدادوا رزقاً» [1]، ولقول الشاعر العربي[2]: [الطويل]

تَغَرَّبْ عَنِ الأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعُلاَ وَ سَافِرْ فَفِي الأَسْفَارِ خمَسُ فَوَائِدَ

تَفَرُّجُ هَمٍّ و اكْتِسَابُ مَعِيشَةٍ وَ عِلْمٌ وَ آدَابٌ وَ صُحْبَةُ مَاجِدِ

بارحت الدار البيضاء[3]، وفارقت الأهل والسكن أول البارحة يوم السبت عشري أكتوبر

---

(1) الحديث: (سافروا تربحوا وصوموا تصحوا واغزوا تغنموا) رواه أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، ورواه الطبراني بلفظ «اغزوا تغنموا وصوموا تصحوا وسافروا تستغنوا»، وفي رواية لابن نجيب «سافروا تربحوا وصوموا تصحوا واغزوا تغنموا»، وأخرجه أبو نعيم في الطب مقتصرًا على «صوموا تصحوا»، وفي موضع آخر منه «اغزوا تغنموا وسافروا تصحوا وتغنموا»، وللطبراني والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنه بلفظ «سافروا تصحوا وتغنموا»، وبهذا اللفظ رواه أيضًا القضاعي والطبراني عن ابن عمر رفعه، ورواه أبو نعيم في الطب أيضًا عن ابن عمر رفعه بلفظ «سافروا تصحوا وتسلموا» ورواه أيضًا عن أبي سعيد الخدري رفعه «سافروا تصحوا»، ومثله في الدرر معزوًا إلى أحمد عن أبي هريرة، والطبراني عن ابن عباس، والقضاعي عن ابن عمر، وعزاه في اللآلئ لمسند أحمد عن أبي هريرة بلفظ «سافروا تصحوا واغزوا تغنموا». أنظر:

العجلوني إسماعيل بن محمد الجراحي: **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**، دار إحياء التراث العربي، ج 1، ص 445.

(2) ورد هذان البيتان في ديوان الشافعي، وينسبان إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. انظر: **ديوان الإمام الشافعي**، اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط 3، 2005، ص 49.

(3) الدار البيضاء: تقع مدينة الدار البيضاء على المحيط الأطلسي جنوب الرباط بحوالى 90 كلم، و هي من المراكز العريقة في القدم، و كانت تعرف باسم أنفا الذي برز في التاريخ الوسيط لأول مرة مع ظهور برغواطة في مطلع القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي). و اعتبر ابن خلدون أن أنفا مع سلا وأزمور وآسفي كانت أهم مراكز المصامدة في العهد البرغواطي. ويبدو أنها كانت من أهم مراكز الفينيقيين التجارية وبهذا تكون أنفا التي أصبحت تحمل اسم الدار البيضاء في التاريخ الحديث من أقدم المدن في المغرب، أو من أقدم القرى التي تطورت إلى مدن. وباعتبارها تتوفر على مرسى هام وآمن فقد كانت السفن تقصدها من مختلف جهات العالم عبر العصور. وقد اعتنى بها المرينيون وخصوصًا السلطان أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق الذي بنى بها عدة مرافق، غير أن البرتغاليين خربوها بعد ذلك مرتين، ثم جددها السلطان العلوي سيدي محمد بن عبدالله، وشيد بها مسجدًا جامعًا ومدرسة وأسواقًا وحمامات، وشحن أبراجها بالجنود والمدافع وأسكن بها بعض القبائل. وفي سنة 1831 م فتح السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام مرساها للتجارة مع جميع الدول ذلك تحت ضغط الدول الأوروبية التي ازداد تدخلها في المغرب خلال القرن 19، ثم تطورت بسرعة على عهد السلطان الحسن الأول وارتفعت بها الكثافة الديمغرافية بسرعة نتيجة استقرار الأوروبيين بها وتكاثرهم منذ نهاية القرن 19، وعندما سيطرت فرنسا على المغرب رسميًا منذ 1912 اهتم اليوطي بالدار البيضاء وكثف الأوروبيين بها مشاريعهم الصناعية والتجارية والفلاحية، وأصبحت الدار البيضاء منذ العقد الثاني من القرن العشرين تستقطب جميع أوجه النشاط الاقتصادي المغربي والأجنبي. انظر:

الضعيف محمد بن عبد السلام: **تاريخ الضعيف**، تحقيق أحمد العماري، دار المأثورات، ط 1 1986، ص 209 - 210، هامش 1415.

حركات إبراهيم: م. س، ج 3، ص 524 - 525.

الجـــاري عند الزوال على متن السيـــار، فوصلـت الرباط[1] بعد ساعة وثلث وإنها لمعجزة من معجزات العلم، قضيت بها أشغالاً واجتمعت فيه بإخـوان صفاء وأهل مودة ووفاء من جلة الأدباء الذين يحق لي الفخر بهم، أمضيت به ليلة سمر مع البعض، أنستني بعض الشيء لوعة فراق من يعز علي فراقه، ثم سافرت من الغد على الساعة السادسة صباحاً قاصداً هذا الثغر الطنجي البهيج، فوصلته بعد الزوال بعيد أن مررت على مدينة القنيطرة، التي صارت تعد من ألطف المدن المغربية بتنظيم طرقها وتصفيف أبنيتها والتفاف أشجار غابة المعمورة بها من جهة، ومرور وادي سبو[2] بها من جهة أخرى، لله ما ألطفها من مناظر تسر الناظرين! ثم قرية سيدي علال التازي، فسوق الأربعاء التي رأيت من الأبنية الأنيقة بها وتنظيمها ما يلفت النظر، وبعدها بمسافة ليست بطويلة وصلنا مركز الماء البارد الذي به المراقبة والديوانة الفرنسية، وبعد فحص أوراق جوازات السفر، بارحناه فوصلنا لمدينة القصر

---

(1) الرباط: تقع مدينة الرباط على المحيط الأطلسي بالضفة اليسرى لوادي الرمان المعروف اليوم بوادي أبي رقراق أمام مدينة سلا الواقعة على ضفته اليمنى. كانت شالة الموجودة آثارها خلف الرباط قد تأسست كقرية هامة على يد الرومان حيث كانت تتردد إليها السفن قبل مجيء الإسلام. وفي العصر الإسلامي بنى المرابطون رباطًا في المرتفعات المطلة على المحيط الأطلسي للجهاد ضد كفار برغواطة الذين كانوا مسيطرين على سهل تامسنا. وحوالى 593 هـ / 1197 م أمر الخليفة الموحدي يعقوب المنصور ببناء مدينة الرباط الحالية وسماها «رباط الفتح» وأكمل سورها وركب أبوابها وأمر ببناء جامع حسان بها ومنارته الشامخة. وفي العهد المريني تجددت العناية بالمدينة فأنشئ مسجدها الأعظم كما بنيت رابطة شالة خلفها وأصبحت مدفنًا لملوك بني مرين. وفي العهد السعدي عرفت المدينة توافد أعداد هامة من الأندلسيين فازدادت الرباط بهم تمدنًا وحضارة وأصبحت إلى جانب مدينة سلا من أهم قواعد الجهاد البحري، وحظيت الرباط في العهد العلوي بعناية واهتمام كبيرين خصوصًا في عهد السلطان سيدي محمد بن عبدالله الذي جلب لها المهندسين الأوروبيين محاولاً تخطيط عمارتها تخطيطًا منظمًا، وحصن أسوارها وأنشأ أبراجها كما أنشأ بها قصره وأكدالاً فسيحًا. و في سنة 1912 م قرر اليوطي المقيم العام للحماية الفرنسية بالمغرب أن يجعل من الرباط العاصمة السياسية والإدارية للمغرب. انظر:

ابن زيدان عبد الرحمن: **العز والصولة في معالم نظم الدولة**، المطبعة الملكية، الرباط، 1961، ج 1، ص 156 - 157 هامش 4- . حركات: م. س، ج 1، ص 341 - 342.

العدد 3312 الصادر يوم الخميس 17 جمادى الأولى 1347هـ / الموافق فاتح نوفمبر/تشرين الثاني 1928.

(2) وادي سبو: ثاني أنهار المغرب أهمية بعد نهر أم الربيع، ينبع ماؤه من الأطلس المتوسط ويسير منعرجًا في اتجاه غربي ـ شمالي ـ غربي، ثم في اتجاه جنوبي حتى يصب في المحيط الأطلسي عند بلدة المهدية بعد ما يقطع في جريه مسافة 614 كلم، وهو يحاذي مدينة فاس من الجهة الشرقية، وهو النهر المغربي الوحيد الذي تدخله السفن المتوسطة. أنظر:

ابن أبي زرع الفاسي: **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، مراجعة عبد الوهاب بنمنصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط 2، 1999 م، ص 36، هامش 46.

الكبير[1] على الساعة العاشرة، الذي قرب الوصول إليه ابتدأنا في عبور منطقة الحماية الإسبانية، وعند المرور به وجدناه يموج بالعربان،[2] ولما سألنا عن ذلك، علمت أنه يوم السوق الذي يعمر مرة في الأسبوع، ورأينا به أبنية جديدة أنيقة، وبعده وصلنا ثغر العرائش[3] على الساعة الحادية عشرة ونصف، خطت خطوت بعيدة في سبيل التقدم والتحسين، ولكنها لا تضاهي ما هو حاصل بمدن منطقتنا العامرة الكبرى، وبقربها أثر المدينة الرومانية العتيقة «لوكسوس»[4]، التي يجري التنقيب عليها، وبعدها وصلنا مدينة أزيلا[5] التي لها بعض الشبه بقصبة فضالة[6] من جهة الموقع على شاطئ البحر.

---

(1) القصر الكبير: مدينة سهلية على واد كبير شتوي يقال له لكس بالعدوة الشمالية منه، أسسها الرومان (oppidum novum) وتعرف بالقصر الكبير وقصر كتامة وقصر عبد الكريم، وتلك البلاد لبني جرفط، كانت مهبط رجالات العلم والفكر والتصوف في أفريقيا الشمالية في مختلف العصور، ذكر الوزان بأنها تأسست في عهد يعقوب المنصور الموحدي. وهي إحدى دوائر إقليم تطوان، تضمّ جماعات بوجديان والعوامرة وقصر أبجير والقلة والطلبة وتاطفت وريسانة. أنظر:
الفاسي محمد العربي: **مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن**، دراسة وتحقيق الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى 2007 م، ص 307 - 308
الوزان: **وصف إفريقيا**، ص 303.
عبد العزيز بنعبد الله: القصر الكبير أول حاضرة في المغرب، **مجلة المناهل**، وزارة الثقافة، الرباط، السنة الأولى، العدد 1، نوفمبر/تشرين الثاني 1974، ص 43 وما يليها.

(2) العربان: يقصد الأعراب من قبائل الخلط أو الخلوط العربية.

(3) العرائش: مدينة مغربية تقع على المحيط الأطلسي بين البحر و نهر اللكوس، احتلها الإسبان سنة 1610 م بعد أن سلمها لهم محمد الشيخ المأمون السعدي في مقابل مساعدته على إقصاء منافسيه من الأمراء على العرش، وبعد وصول العلويين إلى الحكم في المغرب، عمل المولى إسماعيل على حصار المدينة مدة خمسة أشهر إلى أن استسلم الإسبان، فدخلها سنة 1689 م. أنظر: الوزان: **وصف إفريقيا**، ج 1: ص302. حركات: **المغرب عبر التاريخ**، ج 3: ص47 - 48.

(4) ليكسوس: (Lix) من أول المدن التي أنشأها الفينيقيون خلال القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وتقع قرب مدينة العرائش. حركات: **المغرب عبر التاريخ**، ج 3: ص40.

(5) أصيلا: وتنطق أزيلا بلهجة سكان المنطقة، مدينة تقع على الساحل الأطلسي بين طنجة والعرائش. ويعتقد البعض أن تأسيسها يعود إلى العهد الفينيقي، والبعض الآخر يرجع تأسيسها إلى العهد الروماني. كانت لها أهمية خلال العصور الإسلامية، حيث اهتم الأدارسة ببناء مرافقها، وجعلوها مركزًا لدولتهم، وبقيت تلعب دورًا اقتصاديًّا بحكم موقعها في شمال المغرب ووقوعها على الساحل الأطلسي، مما جعلها محط أنظار البرتغاليين الذين احتلوها سنة 876 هـ / 1471 م. وفي سنة 997 هـ / 1589 م عادت أصيلا إلى السيادة المغربية بعد اتفاق بين فيليب الثاني والمنصور السعدي. ثم أعيد احتلالها فحررها ـ من جديد ـ المولى إسماعيل، وأصلحها وأعاد تعميرها. أنظر:
الوزان: **وصف إفريقيا**، ج 1: ص241 - 243. بنعبد الله عبد العزيز: **الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، 1976، ج 4: ص72 - 74. حركات: **المغرب عبر التاريخ**، ج 1: ص126 و ج 3: ص48 - 49. حجي محمد: **معلمة المغرب**، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا 1989، ج 2: ص484 - 488.

(6) قصبة فضالة: تسمى مدينة فضالة وتسمى كذلك المحمدية، وهو الاسم الذي غلب عليها اليوم =

أما مدينة طنجة وما أدراك ما طنجة، فهي ذات البهجة والرواد والمنظر المجلل بحلل البهاء، فرضة المجاز بملتقى البحرين، مقصد الزوار من هبة الأكدار والأغيار، ذات الهواء العليل والماء العذب النمير[1]، فقد تطور تقدمها تطوراً باهراً بالنسبة لحالتها السياسية[2].

نزلت بها عند سيادة الشيخ الجليل الأمين المحب الناسك السيد الحاج إدريس بن جلون، التي جمعتني محاسن الصدف في منزله العامر بفضيلة شيخ الشعراء وصفوة العلماء والشرفاء مولاي أحمد بن المامون البلغيتي العلوي[3] حفظه الله، فنهلنا من كوثر معلوماته

= وخصوصًا بعد الاستقلال (1956). وتقع على شاطئ المحيط الأطلسي بين الدار البيضاء جنوبًا والرباط شمالاً، ولكنها قريبة جدًا من الدار البيضاء، بحيث لا تبعد عنها إلا حوالى 30 كلم فقط. وقد أسس مدينة فضالة السلطان سيدي محمد بن عبد الله سنة 1182 هـ / 1768 م فحملت اسمه وذلك في إطار عنايته بمشروع المدن الساحلية لتطوير التجارة مع الخارج. ثم تطورت إلى مدينة حديثة في القرن العشرين، خصوصًا بعد الاستقلال. انظر: حركات: **المغرب عبر التاريخ** ج 3، ص 524.

الضعيف: **تاريخ الضعيف**، ص 289 هامش 1888.

البكري أبو عبيد: **المسالك والممالك**، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1992، ج 2، ص 762 - الناصري أحمد بن خالد: **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997 ج 8، ص 69.

(1) النمير: الماء الزاكي والنامي والناجع والكثير .**لسان العرب** / نمر، ج 14، ص 290.

(2) بعدما فرضت معاهدة الحماية على المغرب من قبل فرنسا، أصبح المغرب بموجبها مقسمًا إلى منطقتي احتلال؛ منطقة احتلال فرنسية في وسط البلاد وشرقها وجنوبها، عاصمتها الرباط، ومنطقة احتلال إسبانية في شمال البلاد وفي الصحراء الغربية، وعاصمتها مدينة تطوان. أما مدينة طنجة، التي كانت تشكل مقر البعثات الدبلوماسية الدولية منذ القرن 19 م، وحيث إن المصالح البريطانية في المدينة وفي مضيق جبل طريق كانت من الأهمية بمكان، فإن إنجلترا ومعها إسبانيا وإيطاليا دافعت بقوة عن فكرة تدويل المدينة، وفي المقابل عارضت فرنسا الفكرة بشدة مستندة إلى تصريح الصدر الأعظم المغربي المقري يوم 14 يوليو/تموز 1922 م، الذي اعتبر محاولة تدويل طنجة يشكل مسًّا بالسيادة السلطانية والوحدة الترابية للمغرب. وبعد سلسلة من المساومات بين قوى الاستعمار، وخصوصًا بين فرنسا وبريطانيا، نظمت مفاوضات بباريس في أكتوبر/تشرين الأول 1923 م، توجت بالتوقيع على معاهدة التدويل يوم 18 ديسمبر/كانون الأول من السنة نفسها، والتي دخلت حيز التنفيذ سنة 1925 م. أنظر:
Guillén Pierre, « Aux origines de l'internationalisation de Tanger: les négociations sur le statut international. 1912 - 1924 » in: **Tanger 1800 - 1956,** contribution a l'histoire récent du Maroc. Editions Arabe - Africaines, Casablanca, 1991, p. 212 - 213.

(3) هو الشيخ أحمد ابن نقيب الأشراف بمدينة فاس الشيخ المأمون البلغيتي العلوي الحسني، من أنجب علماء فاس وأدبائها، أخذ عن أعلام منهم محمد كنون وأحمد الخياط ومحمد الولاتي الشنكيطي، تولى القضاء في كل من الصويرة والدار البيضاء ومكناسة، رحل إلى المشرق ثلاث مرات وحج، وألف نظماً من 568 بيتًا عن رحلته الحجازية، وله منظومة في علم التوحيد وله «تنسم عبير الأزهار بتبسم ثغور الأشعار» في مجلدين، وشرح أرجوزة في آداب المتعلم والعالم لأبي حامد العربي بن أبي =

ونافع مذاكراته ما أشفى غلتنا، وبشاعرنا المطبوع الصديق القديم السيد عبد الله القباج[1] الذي هو أعرف من أن يعرف، فأسمعنا من بديع غرره وشهي نكاته ولطائفه ما حبذ لنا هاته الصدفة الحسنة، فقلت على البديهة:

مَجْلِسُنَا لَقَدْ جَمَعَ الأَجِلَّةَ وَالْغُرر
مِنْ كُلِّ شَهْمٍ مَاجِدِ تُنْضَى بِطَلْعَةِ الْغِيَر
لاَ سِيَّمَا عَلَمُ السَّنَا شَيْخُ الْقَرِيضِ وَذَا الأَثَر
مَوْلاَيَ أَحْمَدُ مَنْ غَدَا فِينَا هُوَ الْفَذُّ الأَغَر
وَكَذَا شَاعِرُنَا قَصْرُنَا الْـ ـمَطْبُوعِ مِنْهُ بِهِ يَفْتَخِر
مُجْلِي بِطَلْعَةِ شِعْرِهِ لَيْلَ الإِسَاءَةِ وَالْكَدَر
للهِ جَمْعُ إِنَّهُ بِحَدِيثِهِ يَحْلُو السَّمَر

ركبت الفلك الموصل للباخرة، فصرت إليه تارة والتفت إلى المدينة تارة أخرى، فتجيش في صدري عوامل من الأسى والأمل، أسى على مبارحة الأهل والوطن والبعد عن الأحبة والسكن، وأملاً فيما أنه مقدم عليه من زيارة البلدان، وسبر التقدم والعرفان وإرواء الظما من مناهل الوراد وإملاء الوطاب من بدائع ما أبرزته قرائح النبغاء الأفذاذ إن شاء الله تعالى، فالوداع الوداع أيها الوطن العزيز المفدى! الوداع الوداع بني قومي الكرام وكل ما تجمعني به أواصر قرابة ومحبة ومعرفة! وإلى الملتقى بحول الله.

أُوَدِّعُكُمْ وَأُودِعُكُمْ جَنَانِي وَأَسْكُبُ فِي مَوَاطِنِكُمْ دُمُوعِي
وَأَسْأَلُ مَنْ بِفُرْقَتِكُمْ رَمَانِي يَمُنُّ عَلَيَّ يَوْمًا بِالرُّجُوعِ

= يحيى المساري سماها «الابتهاج بنور السراج» توفي بفاس عام 1348 هـ / 1929 م. أنظر:
مخلوف محمد بن محمد: **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، المطبعة السلفية، القاهرة، 1349 هـ. ج 1، ص 437 - 438.

(1) عبد الله القباج: ولد ودرس بمكة المكرمة، دخل المغرب سنة 1898 م بعد أن تمكن من آصرة الشعر في الحجاز، مدح الأعلام والوزراء والكتاب، تقلد منصبًا في وزارة الأوقاف، ثم في وزارة العدل. خلف شعرًا كثيرًا كله منشور في جريدة السعادة. توفي بسلا عام 1945 م.

من طنجة إلى مرسيليا

امتطيت متن الباخرة «طامبورة»، فوجدتها من أفخم البواخر وأرقاها، بديعة النظام، حسنة الهندام، ذات بهجة ورواء كل شيء بها يدعو للتأمل والإعجاب، أسباب الراحة بها متوفرة، ودواعي الأنس والسرور لديها متيسرة، منظرها أنيق وأهلها لهم في مجاملة الركاب ومكارم الأخلاق ذكر أريجة عبيق، خصص لي بها بيت بالدرجة الثانية.

وَثِيرُ الْفِرَاشِ بَدِيعُ الأَثَاث   طِيبُ بِهِ لِلْكَئِيبِ السُّبَات

وعند جلوسنا حول مائدة الغذاء التي صفف فوقها من كل فاكهة زوجان، جلس بحدائنا اثنان من كرام التجار الفرنسيين بطنجة، وهما: مسيو بورني ومسيو ماتيني، وقع التعارف بيننا، فرأيت منهم كل مجاملة ولطف، وصرنا لا نفترق على بعضنا إلا عند الضرورة، ولقد وجدت بعشرتهم الطيبة مؤانسة ولذة خففت عني وحشة الغربة وألم الفراق، فليحيى أبناء فرنسا الكرام، الذين لم يخامر التعصب الجنسي قلوبهم، والذين هم عنوان اللطف والمجاملة.

أما هاته الباخرة فهي لشركة روتردام بهولندة إلى باتافيا بالهند الهولندية (جاوة)، فتمر بواخرها بعد خروجها من روتردام على سوتامبتون، فطنجة فمرسيليا فبورسعيد فالسويس فكولومبو فسابانج فسنغافورة فباتافيا، تقطع هاته المسافة في اثنين وثلاثين يوماً. وبالعكس تصل لطنجة وتبحر منها يوم الثلاثاء، وكل خمسة عشر يوماً ذاهبة للهند ويوم الاثنين آيبة لهولندة، وعدتها بهذا الخط ثمانية بواخر، هاته من أصغرها؛ إذ منها ما يكبرها كثر من مرتين، وهي الباخرة «سيباجاك» التي حمولتها تزيد على الثلاثة عشر ألف طن، وهاته حمولتها ستة آلاف طن فقط، طولها مائة وخمسة وعشرون متراً وعرضها خمسة عشر متراً، وتقطع خمسة عشر ميلاً في الساعة، خدمتها جلهم من مسلمي جزيرة جاوة بالهند الهولندية.

أخذت تمخر بنا عباب البحر ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا﴾[1] على الساعة الثانية عشرة نهاراً، فقطعت بنا البوغاز في أقرب مدة، وإنه لمنظر خلاب! عن اليمين جبال المغرب الشامخة، كأن الطبيعة أوجدتها حراساً جاثمة ترقب عن كثب كل من يريد المرور من ذلك الدرب الذي له ذكر في التاريخ، يليها مدينة سبتة[2] الظريفة ذات المنظر الجميل والهواء البليل، وفي مقابلتها من جهة اليسار مدينة طريف، فجبل طارق وما أدراك ما جبل طارق، هو ذلك العلم الشامخ المدجج بالسلاح الرابض كالأسد الرئبال شاخصاً ببصره الحاد، رفيع الرأس رقيباً لا يغض الطرف ولا يغفو بصره، وهنا ابتدأنا في عبور البحر الأبيض المتوسط وشواطئ الأندلس ماثلة لبصرنا، وبمرآها تذكرنا ما كان لأسلافنا الكرام رحمهم الله بها من مجد وعظمة، وبما شع لهم فيها من أنوار العرفان التي استضاءت بها ممالك أمم الغرب، وكانت سبب نهضتها التي نرى الآن تزايد عظمتها وتقدمها يوماً عن يوم، ومرت على مخيلتنا كحلم، حوادث ذلك البحر التاريخية وما كان لأساطيل العرب المغاربة فيه من ضخامة وتفوق ورهبة، ما هو مقرر ومسطر بدفاتر تاريخ علماء أوروبا على الأخص، و﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾[3]. وفي الغد صباحاً قرب الساعة العاشرة ابتدأت شواطئ إسبانيا الجبلية عن يسارنا بالظهور، وجلها أجرد قاحل لم يظهر لنا به أثر كبير للعمران، وفي الساعة الثالثة ونصف بعد الزوال ظهرت لنا عن بعد من جهة اليمين جزائر البليار[4] التابعة لإسبانيا؛ وهي الجزائر ميورقة ومنورقة وغيرهما. ومن الغد الساعة العاشرة صباحاً، ظهر لنا الشاطئ الفرنسوي من بعد من جهة اليسار، وكان بودنا أن ننظر مدينة برشلونة أعظم فرضة تجارية وأكبر مرسى لإسبانيا على

---

(1) سورة هود، الآية: 41.

(2) سبتة: مدينة مغربية محتلة، تقع في أقصى شمال المغرب، عبارة عن شبه جزيرة مطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط وعلى مضيق جبل طارق، بلغت أوج عزها في العصر العزفي والمريني، حيث شكلت مرفأ طبيعيًا للتجارة المتوسطية وسوقًا تجارية رائجة، سقطت في يد الاحتلال البرتغالي سنة 1415 م، لتنتقل بعد ذلك إلى السيطرة الإسبانية منذ سنة 1578 م وحتى يومنا هذا، بعد اندحار البرتغال في معركة وادي المخازن أمام السعديين. أنظر:

الفكيكي حسن: **سبتة المغربية، صفحات من الجهاد الوطني**، الرباط، 2000، ص 4.

إدريس خليفة: **التاريخ المغربي لمدينة سبتة**، الرباط، 1988، ص 7.

إدريس الشلوشي: **الجزر المغربية المتوسطية في سياسة الغزو الإسباني للمغرب 1799 - 1912** أطروحة دكتوراه، فاس، 2002، ص 28، غير منشورة.

(3) سورة الروم، الآية: 3.

(4) جزر البليار: وكانت تعرف أيام الحكم باسم «الجزائر الشرقية» هي جزر تقع قرب الساحل الشرقي لشبه جزيرة إيبريا، تبلغ مساحتها 4992 كلم مربعًا، أكبر جزيرة اسمها ميورقة وفي جنوبها الغربي توجد العاصمة.

شاطئ البحر الأبيض المتوسط، فلم يسعفنا الحظ برؤيتها لمرور الباخرة صوبها ونحن نيام. أما مرسيليا العظيمة، فقد تراءت لنا على الساعة الحادية عشرة ونصف، ودخلنا مرساها العجيب الذي هو من أكبر مراسي العالم وأكثرها حركة وانتظاماً وأغناها فخامة وإبداعاً الساعة الواحدة، فقطعنا المسافة التي بين طنجة وبينها في تسعة وأربعين ساعة، وهي سبعمائة وإحدى وعشرين ميلاً، كان البحر في أثنائها ساكناً هادئاً وديعاً مسالماً تمخر به «طامبورة» كأنها قطعة ثابتة لا نشعر بها بحركة، فكانت سفرتنا نزيهة شيقة بديعة، من حين لآخر نسمع العزف على البيانو والكمنجة[1] من أبناء وبنات هولندة صباح الوجوه، والحاكي الفونوغراف والراديو، بأنغام شجية تقرب بعض الشيء من أنغام موسيقانا العربية، فتروق للسمع وتنعش الفؤاد، لله ما أجملها وألطفها من نزهة لولا فراق الأحباب، الذين وددت لو كانوا برفقتنا فيكمل سرورنا![2]

مرسيليا[3]

ماذا عساني أن أقول في بلدة طبق ذكرها الآفاق، وحصل من الكل على مزايا عظمتها الاتفاق، نعم إن بلدة يبلغ طول رصيفها العظيم ما يناهز الثمانية عشر كيلومتراً ـ ما عدا منعرجاته ومتفرعاته ومنعطفاته، والذي ترسو به وتخرج منه كل يوم من البواخر العظام لكافة الممالك ما يعد بالمئات العديدة التي لا يحيط بها حصر ـ لمن الأهمية بمكان.

إن بلدة يبلغ سكانها نحو المليون من الأنفس، وفيهم خليط من كافة الأمم والملل والنحل، حتى ترى بها الصيني والياباني والهندي والتركي والفارسي والسوداني وهلم جراً، ومن إخواننا مسلمي إفريقيا الشمالية ما يزيد على الخمسة عشر ألف نسمة، لذات مكانة وأي مكانة.

أما منظرها العام؛ فهي مدينة عظيمة ذات منظر فخم يدعو للتأمل والإعجاب، يحف بها البحر من جهة، ومن باقي أنحائها أجنة باسقة الأفنان تروق في نظر الإنسان، طرقاتها متسعة مزدحمة بالخلق تموج بهم موجاً، أغلبها على جانبيه أشجار مصفوفة، وبوسطها جداول من خطوط عربات الترامواي ذاهبة آيبة، أما العربات السيارة فلا تعد ولا تحصى كثرة، حتى أن

(1) يقصد آلة الكمان.

(2) من الباخرة «طامبورة» عند الدخول إلى مرسيليا. يوم الخميس 25 أكتوبر/تشرين الأول سنة 1928 م، محمد بن يحيى الصقلي الحسيني.

(3) الثلاثاء 6 جمادى الثانية 1347هـ موافق 20 نوفمبر/تشرين الثاني 1928م (عدد 3320).

الإنسان لا يجد فرصة تمكنه من التحول من جهة إلى جهة أخرى إلا بشق الأنفس. دورها مرتفعة كلها ذات ست أو سبع طبقات إلا ما ندر، عليها مسحة من الجلال والرواء، غير أنها كلها مجللة بالسواد بسبب ما ينتابها كل آن من حمم دخان البواخر والمعامل. أما مخازنها ودورها التجارية فحدث عن البحر ولا حرج، يكفي للتعريف بها وبما احتوت عليه من البضائع المتنوعة، أنها من أهم البلدان التجارية في العالم، وأنها كعبة القاصد من التجار الذين يلفون بها على الدوام طلبتهم وأمنيتهم، و يكفي أيضاً للدلالة على عظمتها أن المتر المربع من الأرض في المحلات المهمة بها يساوي الخمسة آلاف فرنك، إن هذا لأكبر دليل وأقواه على أهميتها ومكانتها في الحركة والغنى. طقسها جميل وهواؤها معتدل يضاهي طقس شواطئنا المغربية، نزلت بها عند الفقيه النابغة الأديب السيد محمد بن إبراهيم الفاسي القيم بدار الحلو التجارية المغربية الشهيرة بها، والتي لها حركة تجارية عظيمة مع جل أنحاء الشرق العربي والمغرب،كمصر وسوريا والحجاز والهند وتونس والجزائر والمغرب والسودان وهلم جراً أسسها المرحوم الحاج محمد لحلو الفاسي منذ ما يزيد على الخمسين سنة على سبيل التخمين، فنجحت نجاحاً مطرداً متوالياً بسبب استقامتها وانتظام أحوالها أكثر الله من أمثالها، وإن سير أحوالها وأشغالها ليدل دلالة واضحة على أن المغربي سامي المدارك، له ذكاء فطري ونجابة مفرطة يؤهلانه لإحراز كل ما تصبو إليه نفس بشرية من عوامل الحياة، إنما ينقصه الإقدام والتدريب فقط، ولكن امتزاجه واختلاطه ومعاملاته مع أبناء فرنسا الحامية النشيطة ولا شك، يعطيه درساً مهماً في هذا السبيل فينشط من عقاله ويأخذ له حصة من التقدم في ميدان العمل بنشاط، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾[1] والأدلة على ذلك كثيرة ماثلة للعيان معترف بها من كل منصف شريف.

أما السيد محمد بن ابراهيم فهو كهل في العقد الخامس من عمره، جميل الخلق والخلق، من نوابغ أدباء فاس لطيف المعشر صادق المخبر، أخذ عن الأصمعي[2] أدبه

(1) سورة فاطر، الآية: 17.

(2) الأصمعي: هو أبو سعيد عبد المالك بن قُريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع بن مظفر، المعروف بالأصمعي، الإمام الحافظ، حجة الأدب، ولسان العرب، اللغوي الأخباري، أحد الأعلام، ولد سنة 122 هـ أو 123 هـ، حدث عن ابن عون وسليمان التيمي وأبي عمرو بن العلاء وغيرهم، وحدث عنه أبو عبيد ويحيى بن معين وإسحاق بن إبراهيم الموصلي، له تصانيف كثيرة، وأكثر تواليفه مختصرات، وقد فقد أكثرها، ومنها: خلق الإنسان، والأجناس، والهمز، والمقصور والمدود، والفرق، والصفات، والخيل، والأمثال، والأضداد، وغيرها. توفي في صفر سنة 215 هـ أو 216 هـ. أنظر ترجمته عند: الذهبي: **سير أعلام النبلاء** 10 / 175 - 181. الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد** 10 / 410 - 418.=

ومعلوماته، وعن أبي نواس[1] نكته ومداعباته، يغتبط الإنسان بمجالسته ويود أن لا ينقضي لها أمد، وله مزايا من مكارم الأخلاق والاعتناء بقضاء حوائج قصاده خصوصاً من أبناء وطنه قل أن تجدها في غيره، فيرشدهم ويأخذ بيدهم في قضاء أغراضهم ويكرم وفادتهم، جازاه الله عن إحسانه خير الجزاء وكثر من أمثاله.

مكثنا بمرسيليا يوم الخميس والجمعة، ووجدنا بها اعتصام عام لعملة المرسى، فما طرقنا بابا من أبواب شركات البواخر إلا وجدناه موصداً في وجهنا، حتى ضاقت بنا السبل وأخيرا عثرنا على إعلان بجريدة محلية عن باخرة يونانية اسمها «باتريس دو» تسافر يوم السبت الساعة الثانية بعد الزوال لمرسى بيرة المحادي لأثينة العاصمة اليونانية، ومنها لسالونيك[2]، ثم للقسطنطينية العظمى الأستانة العلية التي لا تصلها إلا بعد تسعة أيام من مبارحتها مرسيليا، فلم يفدنا إلا أن أخذنا بها محلاً بالدرجة الثانية، فامتطينا متنها بعد الزوال، فوجدناها باخرة كبيرة نظيفة عليها مسحة من البهاء والرواء، حمولتها ستة آلاف طن، تسير بسرعة اثني عشر ميلاً في الساعة، خدمتها كلهم يونانيون وركابها جلهم من اليونان، غلاظ الأكباد متجهمي الوجوه ما عدا البعض من الفرنسيين اللطفاء الذين أسعدني الحظ بأن كان رفيقي ببيت المنام منهم، وهو لانجنيور كونساي مسيو غوستاف تيفيني من أشراف مدينة ليون، الذي رأيت منه كل مجاملة ولطف ومواساة عندما اعتراني مرض دوار البحر، وبعض من الإنجليزيين وتركي مسلم واحد اسمه سليم إلهامي، شاب من تجار إسطامبول، الذي وجدت بمجالسته ومحادثته ارتياحاً ما عليه من مزيد، وأخذت منه إرشادات لا شك أنها تفيدني فيما أنا مقدم عليه ببلد ليست لي به سابق معرفة ولم تطأ رحابه قدماي فيما قبل، فتذكرت بسبب هذا قول الشاعر العربي[3] رحمه الله [بسيط]

سَافِرْ تَجِدْ عِوَضًا عَمَّ[4] تُفَارِقُهُ وَانْصَبْ فَإِنَّ لَذِيذَ الْعَيْشِ فِي النَّصَبِ[5]

= وابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ج 3، ص 171- 176. وابن النديم محمد بن إسحاق: **الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وكتبهم تحقيق رضا تجدد**، ص 61 - 62.

(1) أبي نواس: هو أبو علي الحسن بن هانئ الحكمي، وقيل ابن وهب، رئيس الشعراء، لقب بأبي نواس لضفيرتين كانتا تنوسان على عاتقيه، ولد بالأهواز سنة 145 هـ أو 136 هـ، ونشأ بالبصرة، سمع من حماد بن سلمة وطائفة، وتلا على يعقوب، أخذ اللغة عن أبي زيد الأنصاري وغيره. مدح الخلفاء والوزراء، ونظمه في الذروة، ولأبي نواس أخبار وأشعار رائقة في الغزل والخمور، وحظوة في أيام الرشيد والأمين. مات سنة 195 أو 196 أو 198 هـ ببغداد. **سير أعلام النبلاء** 9 / 279 - 281. **وفيات الأعيان** 3 / 95 - 103. **الشعر والشعراء** 501.

(2) سالونيك: مدينة يونانية على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

(3) ورد هذا البيت في **ديوان الإمام الشافعي**. م. س، ص 27.

(4) في ديوان الشافعي: «عمن».

(5) النصب: التعب.

أما الباخرة فسيرها وبيل، ما بدأت بالتحرك والسير على الساعة الرابعة مساء، حتى ألم بكل راكبيها مزيد عناء وانتابهم، وأنا من جملتهم ألاحن والأوصاب من ألم دوار البحر الوبيل الذي لا تطيقه نفس بشرية، والعجب كل العجب هو أن البحر في غاية الهدوء والسكون، وهي ترتعش فرقاً وتميل يميناً وشمالاً كالجبان إذا أكره على خوض معمعة للقتال، فاستنتجت من ذلك أنها وآلاتها من الطراز العتيق الذي لم يبق له استعمال عند الأمم الكبرى الراقية، والذي تبيعه قصد التخلص منه بأبخس الأثمان، فسحقاً لك يا «باتريس دو»، ثم سحقاً ووآسفاً على فراقك يا «طمبورة» الظريفة! التي ما أشبهك عندي بالزوجة الجميلة الوديعة العاقلة المطيعة التي يجد الزوج عندها راحة وهناء، ويلقى بقربها كل ما تصبو إليه نفسه من وسائل الغبطة والنعيم، فإليك مني يا «طمبورة» وإلى أهلك البررة ألف تحية وسلام، وإن بفؤادي لكما لذكرى لا يمحوها مرور الليالي والأيام.

وفي الغد يوم الأحد بدأت تظهر لنا شواطئ فينيسيا الإيطالية على الساعة العاشرة صباحاً، وبعدها ظهر لنا جبل باكان سطرمبولي على الساعة الرابعة عشية وحاذيناه بعد الغروب، فرأينا فوهته الجهنمية من جهة ترمي بلهب النيران الموقدة، فينبعث معها دخان أبيض، وإنه لمنظر رهيب تمثل أمام أبصارنا! به منظر من مناظر جهنم أعاذنا الله منها جميعاً. ومن العجب العجاب أنه في الجانب الآخر منه توجد قرية آهلة بالسكان بها ما يقرب من المائة منزل منقطع سكانها عن اليابسة جوار ذلك المنظر الرهيب؛ إذ هذا الجبل جزيرة بوسط البحر لا يتعدى محيطه حسب ما ظهر لنا العشرين كيلومتراً، وماء البحر يغمرها من كل جهة، وهو صلد قاحل لا أثر للعمران به سوى ما ذكرنا، إن هذا الشيء عجاب! وأقوى دليل على مضاء عزائم الأوروبيين الذين يهون لديهم كل صعب عسير. بعد ذلك بمدة نحو الساعتين، ظهرت لنا شواطئ إيطاليا عن اليسار وصقلية[1] موطننا القديم الذي ننتمي بالكنية إليه عن اليمين، وكل هاته الشواطئ عامرة آهلة بالمدن الكبيرة الزاهرة حتى كادت تتصل ببعضها، ظهر لنا كل هذا من كثرة الأضواء الكهربائية المنبعثة منها بكثرة تفوق الوصف، فكان أسفنا عظيماً على

---

(1) صقلية: Sicilia جزيرة إيطالية مثلثة الشكل، تعد أكبر جزر البحر الأبيض المتوسط، تقع جنوب شبه الجزيرة الإيطالية، على مساحة تتعدى 25,5 ألف كلم مربع، يفصلها عن إيطاليا مضيق مسينا، فتحها المسلمون في عهد زيادة الله بن إبراهيم الأغلب أمير القيروان على يد قائده الفقيه المالكي القاضي أسد ابن الفرات وذلك عام 212 هـ، ثم استرجعها الملك البيزنطي روجير عام 453 هـ. أنظر: الحميري: **الروض المعطار**، ص 366 - 368. البكري: **المسالك والممالك**، ج 1، ص 482 - 486.

عدم رؤيتنا ذلك نهاراً لنستوعبه أتم استيعاب. ومن جملة المدن التي رأيناها بالشاطئ الإيطالي، مدينة كليريا ويليها مدينة ريجيواوها مدينتان جميلتان، وفي مقابلتهما بالشاطئ الصقلي مدينة حسينا الجميلة العظيمة وبعض قرى عامرة زاهرة، فسكبت الرحمات على رفاة أسلافنا الكرام بها الذين اتخذوها لهم داراً وقراراً نحو الثلاثمائة عام أو تزيد، وتلوت قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[1].

وفي الغد يوم الثلاثاء عشية ظهرت لنا شواطئ الجزر اليونانية، وفي الساعة الخامسة ونصف من صبيحة يوم الأربعاء ابتدأنا بالدخول في ترعة كورينتوس؛ التي مسافتها نحو السبعة كيلومترات وعرضها خمسة وعشرين متراً تقريباً وارتفاع حافتيها نحو الكيلومتر، وهي ملتقى البحر اليوناني مع بحر إيجه، وإنه لمنظر خلاب يسحر الألباب! انتهينا من المرور بهذا الدرب العجيب بعد ساعة تقريباً، وبقيت الباخرة تمخر بنا في بحر إيجه الذي هو أشبه ببحيرة منه ببحر؛ إذ إن الشواطئ متراثية لنا عن قرب من الجانبين، وهو هادئ ساكن كصفحة من لجين نسج الهواء عليها زرداً[2] يا له من زرد! وكان لمنظر بزوغ الغزالة عليه وبعثرة مراكب الصيد ذات القلاع به هنا وهناك، منظر ينبغي له ريشة مصور بارع يشخصه للعيان، لا قلمي العاجز!. أخبرت أن أول من فكر في فتح هاته الترعة هو نيرون الظالم القيصر الروماني، ثم شرعت في العمل به شركتان لم تقدرا على إتمامه، إلى أن قيض الله له شركة فرنسوية أنجزت أشغاله عام 1939، وليس على همم أبناء فرنسا شيء ببعيد المنال.

وعلى الساعة العاشرة وصلنا لمرسى بيرة اليوناني، الذي لا يبعد عن أثينا العاصمة اليونانية أكثر من خمسة عشر كيلومتراً، فنزل به جل الركاب الذين هنأتهم من صميم الفؤاد على مفارقتهم لهاته الباخرة التي لا تطيب عشرتها، والتي سأرغم على المكث بها خمسة أيام أخرى حتى أصل الاستانة بحول الله[3].

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 140.

(2) الزرد: بفتح الزاي وضم الراء والدال، أو بفتح الزاي والراء وضم الدال، تعني حِلَقُ المِغفر والدرع. **لسان العرب**، ج 6، ص 34.

(3) عن الباخرة «باتريس دو» قرب مرسى بيرة يوم الأربعاء 31 أكتوبر/ تشرين الأول سنة 1928. محمد بن يحيى الصقلي الحسيني.

بيرة فسالونيك[1]

دخلنا مرسى بيرة اليوناني على الساعة العاشرة صباحاً من يوم الأربعاء 31 أكتوبر، فوجدناه مرسى عظيماً له أهمية كبرى اكتسبها بعد الحرب العظمى، وانعزال روسيا عن الأمم بسبب مبادئها الفاسدة التي لا تروق لأحد أخذ مكانة أهم مراسيها في الحركة الاقتصادية مع الخارج، منظرها العام يدعو للاعتبار؛ بناءاتها بسيطة على النسق الحديث أغلبها ذو طبقتين سفلى وعليا، مسقفة بالقرميد[2] وقليل بها الدور التي تحتوي على ثلاثة أو أربع طبقات، مساحتها كبيرة، عدد سكانها مائة ألف نسمة، طقسها للحرارة أقرب؛ إذ وجدت حالته كأيام الخريف عندنا، وأثينا العاصمة الشهيرة في التاريخ لا يبعد عنه أكثر من خمس عشرة دقيقة بالترامواي، الذي يذهب إليها كل خمس دقائق استمراراً وبالعكس، أما المعيشة بها فرخيصة بسبب سقوط قيمة العملة اليونانية؛ فالدرهم وهي الفرنك، كل ثلاثة منها تساوي فرنكاً[3] واحداً افرانسياً، أما رصيفها فهو مبني على الطراز الحديث، مستدير بعض الاستدارة حتى صار داخله حوض عظيم له مدخل واحد من جهة البحر، غير أن السفن لا ترسو محادية له لكثرتها، بل ترسو قريبا منه بنحو العشرين متراً مولية مقدمها واحدة جنب الأخرى، وجدنا به ما يربو على الستين باخرة عددها بين الكبرى والمتوسطة، ونحو الثلاث حربية. حين ألقت مرساتها باخرتنا، صعد إليها الكمساري لفحص الجوازات وإعطاء الرخصة بالنزول للبر، فتقدمنا إليه ليرخص لنا بذلك رغبة في الذهاب إلى أثينا للتفرج عليها وعلى متاحفها وآثارها القديمة، فأنعم أولا ثم عاد فامتنع، ولا سبب أوجب ذلك المنع إلا لباسي المغربي الذي لم

---

(1) السبت 17 جمادى الثانية 1347 موافق فاتح ديسمبر/ كانون الأول 1928 (عدد 3325).

(2) القرميد: القَرمَد والقِرْمِد، حجارة لها خُروق يوقد عليها حتى إذا نضجت بني بها أو طليت بها الحياض والبرك، وقيل القَرْمَد خزف يطبخ، والقِرمِيد، الآجُرُّ .**لسان العرب** / قرمد، ج 11، ص 131 - 132.

(3) الفرنك: عملة نقدية فرنسية.

أغيره (وجلابيتي وطربوشي)، واليونانيون حزازتهم وكراهيتهم نحو الأتراك شهيرة، ويظنون كل لابس للطربوش تركي، وحتى الآن لا يسمحون للأتراك بوطء تراب أرضهم إلا إذا كانوا من القناصل أو ممن لهم أشغال رسمية مع حكومتهم، والخير في الواقع ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾[1].

ولقد ألفت نظرنا ما أحاط بالباخرة من الزوارق الصغيرة المعبر عنها بالفلائك[2] عندنا، بكثرة فائقة، وجلها يحمل المستقبلين، ولغط أصحابها مستمر، كل يريد جلب الزبائن لزورقه بإلحاح ما عليه من مزيد، منظر يدعو للضحك!. وعند نزول الركاب الذين أغلبهم نزلوا بها، إذ لم يبق برفقتنا من قصاد سالونيك والأستانة سوى نفر قليل لا يتعدون الخمسة عشرين نساء ورجالا، أخذت الباخرة في إفراغ ما تحمله من البضائع والأدوات ليلاً ونهاراً باجتهاد عظيم، فألفت نظرنا بنوع خاص ما أنزلته من كثرة الصناديق الضخمة المحتوية على الطيارات وأدواتها العسكرية اليونانية.

ومن أغرب ما رأيته أيضاً؛ عناية اليونانيين بحمل السبح، إذ أغلبهم ممن رافقونا بالباخرة ومن صعد إليها من المدينة لقضاء مهمة، يحملون سبحاً بأيديهم أغلبها من القهرمان (العنبر الأصفر)، ولكنها أقصر من سبحنا، إذ ليست ذات مائة حبة، فتعجبت من ذلك، ولم أدري هل هاته كلها تقوى فيهم أو لهم مشايخ وطرق تلزمهم بحملها وعد الأوراد بها كما هو عندنا أم خلاف ذلك العلم لله!؟.

بقينا طيلة يوم الأربعاء ويوم الخميس أول نونبر إلى الساعة السابعة من مسائه، فعندها تحركت بنا الباخرة قاصدة سالونيك بعد أن أمضينا يومين بها كالمحبوسين، لا لذنب اقترفناه أو لجرم أتيناه، سوى لباسنا المغربي العربي الذي ذهبت آمالنا ضحية له وللتعصب الأعمى الذي امتزجت جراثيمه الفاسدة بدم الإنسان، وجرت فيه شرايينه مجرى تعذر معه الحكماء ونطس[3] العقلاء، علاج دائه الربيل[4] بحال من الأحوال والأمر لله.

وفي الغد يوم الجمعة على الساعة الثامنة صباحاً بعد انتهائنا من تناول فطور الصباح،

---

(1) سورة البقرة، الآية: 216.

(2) الفلائك: القوارب الصغيرة التي تستخدم المجاديف.

(3) نطس: رجل نَطْسٌ ونَطِس ونَطُس ونَطيس ونِطاسي: عالم بالأمور، حاذق بالطب وغيره، والنُّطُس: الأطباء الحذاق. ابن منظور: **لسان العرب** / نطر: ج 14، ص 185.

(4) الرَّبيل: اللص الذي يغزو القوم وحده، ورابلة العرب، هم الخبثاء المتلصصون على أسؤقهم، **لسان العرب** / ربل، ج 5، ص 125 - 126.

الذي هو عادة بهاته الباخرة «باتريش دو» شيء من الزبدة والعسل وبقسماط وشاي أسود أو قهوة بالحليب، صعدنا للظهر وجلسنا على مقعدنا، ثم أخذنا نجيل الطرف في عجائب صنع الله من ذلك البحر الهادئ المترامي الأطراف، وذلك الجو البديع الشاسع الذي لا تدرك كنهه الأبصار، ولا تحيط بعجيب صنعه العقول والأفهام، صنع الله الذي أتقن كل شيء لا إله غيره ولا معبود سواه.

هذا والجزر اليونانية تتراءى لنا كل حين عن اليمين وعن الشمال، تارة عن بعد وأخرى من قريب، والنفس تستعذب استنشاق هواء البحر العليل الذي ينعش (الجسوم)[1] وينفي العلل والأسقام، ونحن في دعة سكون وراحة من عناء الأشغال وضوضاء الخلق وتزاحم الأقدام وتضارب المناكب لا يعكر صفونا شيء من ذلك، إنها لمنحة نحمد الله سبحانه عليها ونشكره مزيد الشكر.

وهنا يجدر بي أن أبدي ملاحظة مهمة، وهي أنني وجدت ارتياحاً وغبطة لإلمامي باللغة الإفرنسية العذبة بعض الإلمام؛ إذ بها كنت أجد القدرة على مخاطبة كل الرفاق من هولنديين وألمان وإنجليز ويونان وترك وكل أجنبي عنها، والتعبير عن أفكاري والاستفهام عن المواطن والأشياء التي أريد أن أتعرفها، فقليل من وجدته لا يعرفها، إن هذا لمن نعم الله على الواجب مزيد الشكر عليها، إذ لولا معرفتي بها ماذا يكون عليه حالي؟ لا شك أن أكون في حرقة ونكد وضجر يفقداني السلوى واللذة التي أرتع في أنعمها الآن، ولكنت سخرية بين القوم كميت بين الأحياء، فمنذ فارقت طنجة ما وجدت من يعرف التلفظ بكلمة عربية، اللهم إنسان واحد من خدمة الباخرة الهولندية الجاويين وبمرسيليا فقط، فبناء عليه يجب على إخواننا المغاربة أن يعتنوا بتعلمها وأن يعطوها حقها من الملاحظة والاعتبار، هذا القول أوجهه لمن تجاوز سنه عهد الحداثة، أما ناشئتنا الحديثة فإقبالها عليها وشغفها بها كبير حتى ضاقت بهم المدارس على رحبها، فرفضت طلبات كثيرين من تأخر طلبه في جل المدن المغربية، فعليه نرجو ممن له الأمر أن يتلافى ذلك ويعطي المسألة حقها من الدرس والاعتبار.

وبعد الظهر تراءت لنا بعض القرى الآهلة، وعند الساعة الثالثة والنصف ظهرت لنا مدينة سالونيك عن بعد، وحادينا منطقة استحكاماتها الحربية وقشلاتها[2] العسكرية على

(1) هكذا بالأصل.

(2) القشلة: الثكنة العسكرية.

الشاطئ بالمحل المسمى «قارة بورون»؛ وهي من عمل الأتراك، ذات عظمة وأهمية كبرى لا تقدر على التراثي لها، فضلاً عن الدنو منها، أية قوة لأي دولة معادية! ولكن بخيانة من قمندانها العسكري تحسين باشا الألباني الأصل، مقابل قبضه من اليونان عشرين ألف ليرة ذهبية، أخذها الأعداء غنيمة باردة إبان الحرب البلقانية سنة 1913، فأتت بها من الأعمال المنكرة الوحشية ضروباً وألواناً، وغيرت كل مساجدها كنائس، كل هذا إرضاء لنهم وجشع ذلك الباشا الخائن الغبي، حتى أنها أخذت ولم تطلق في الدفاع عنها ولا طلقة نارية واحدة، الأمر لله! كل هذا قرره لي سليم أفندي إلهامي رفيقنا الذي هو من أعيان أبنائنا، والذي رأى كل شيء بعيني رأسه، وقد مكث بها بعد الاحتلال خمس أعوام، ثم شملته المبادلة، فبارحها للأستانة بعد أن أخذت أملاكهم. وبعد ذلك قصدتها جيوش الأتراك مع حلفائهم إبان الحرب العظمى سنة 1917، وقاربت الوصول إليها، فأحرق جلها اليونان وأعيد تجديد بنائها بعد ذلك[1].

سالونيك[2]

دخلنا مرسى سالونيك ووضعت الباخرة مرساتها به على الساعة الرابعة و النصف من مساء يوم الجمعة ثاني نوفمبر، فوجدنا مرسى عظيم الأهمية، رصيفه ذا مسافة شاسعة يشابه في هيئته بعض الشبه رصيف الدار البيضاء ولربما يفوقه من جهة الاتساع، منظره مع ما حف به من قصور المدينة وجناتها كهيأة هلال، وبه حواجز وأحواض. أما منظر المدينة على الإجمال، فإنني لا أستطيع وصف محاسنها أو تشخيص هيأتها للقراء الكرام؛ من وجوه أهمها: ضيق المقام، ثم منعي من زيارتها وحبسي في الباخرة كما مر ببيرة، وما حصل للنفس من النكد من أجل ذلك، فوا أسفاه على عدم إصغائي لنصح من أشار علي بالمغرب لاتخاذ اللباس الإفرنجي! من هذه الجهة، ومن جهة أخرى كنت عرضة للأنظار التي تلبث شاخصة إلي، ولقد رأيت بعض السيدات يخوفون أبناءهم بي، وكان أمر الله قدرا ومقدورا.

والحاصل أن مدينة سالونيك أجمل وأبهى المدن الذي رأيت، ذات قصور شاهقة بديعة، منظرها يسر الناظرين ويبعث في النفوس باعثا قويا من الإجلال والإكبار، ممتدة حول الرصيف محيطة به إحاطة السوار بالمعصم من أدناه إلى أقصاه، في منبسط من الأرض شاسع

---

(1) «يتبع» محمد بن يحيى الصقلي.

(2) عدد 3326 بتاريخ 30 جمادى الثانية 1317 هـ موافق 4 ديسمبر/ كانون الأول 1928 م.

أدراجه، تحف به هضبة متوسطة الارتفاع، والمدينة تمتد إلى قمتها من الوسط، يا له من منظر بديع خلاب! هذا كل ما أطيق قوله في وصفها. أما عدد سكانها فأربعمائة نسمة جلهم يونان وفيهم عدد من اليهود لا يستهان به، أما المسلمون فقد نزحوا عنها بسب ما انتابهم من الاضطهاد، فلم يبق منهم بها إلا أفراد قلائل لا يمتون بصلة مع تركيا مطلقاً، وهي ذات حركة تجارية عظمى، ورصيفها له أهمية كبرى من أجل ذلك، إنما لا يبلغ حركة رصيف بيرة. مكثنا به بقية يوم الجمعة ويوم السبت إلى الساعة السابعة والنصف مساء، فعندما أخذت الباخرة في التحرك فكأنما أطلقت من عقال (...)[1] الأستانة كعبة قصدنا، محط آمالنا.

هذا ويجب هنا ذكر بعض الملاحظات، وهي أنني رأيت اليونانيين كلهم يتقنون التكلم باللغة التركية كأبنائها، ورأيت المكلفين بأمور الديوانة[2] عندهم عادة غريبة لم أرى نظيرها بقطر من الأقطار، وهي أنهم عندما ترسو الباخرة يصعدون إليها ويفتشون عفش المسافرين حتى الذين لا ينزلون بأرضهم. كنت (أغير)[3] ثيابي صباح يوم وصولنا لبيرة، فما لبثت أن سمعت طرقاً على الباب ففتحته حيناً، فدخل علي اثنان منهم لأجل التفتيش، فوجدوا حقيبة مفتوحة لآخذ منها الثياب، والأخرى سألوني هل عندك بها شيء جديد؟ فأجبتهم بالسلب، فما كان منهم إلا أن ربطوها بخيط من الرصاص وختموا عليها بخاتم الديوانة وأعطوها لرئيس خدمة الباخرة الذي كان معهم، وأمروه بأن لا يعطيها إلي إلا بالأستانة، وهكذا فعلوا مع كل المسافرين. إن هذا لشيء غريب !.

وعادتهم في المأكل والمشرب شرقية إلا ما نذر، وجدت بها بعض أشياء تقارب ما تعودت أكله بمنزلي أو تضاهيه.

وفي الساعة السادسة صباحاً من اليوم الموالي من يوم الأحد، ابتدأت بالظهور لنا شواطئ جزر بحر إيجة التركية التي حادينا المرور قربها بعد ساعتين؛ وهي جزر متعددة منها ما ليس به أثر للعمران ومنها ما به عمارة بعض دور و أغراس مبعثرة هنا وهناك.

وفي الساعة الواحدة بعد الزوال ابتدأنا بالدخول في بوغاز الدردنيل، ولأوله مررنا على حصون سد البحر، فرأينا العجب من أسبابه المناعة والتحصين، أول ما ظهر لنا به فنار عظيم

(1) كلمة غير مقروءة.

(2) الديوانة: أي الجمارك.

(3) في الأصل أغر، والصواب ما أثبتناه في النص.

شاهق العلو لإرشاد البواخر ليلاً، وبعده بنحو كيلومتر مقبرة شهداء الأتراك به إبان الحرب العظمى، وبوسطها تذكار على هيئة الصومعة كثير الارتفاع يضاهي الفنار أو يفوقه في العلو، ويلي ذلك حصن قديم كبير المسافة ويليه قشلة عسكرية كثيرة البناءات كقرية كبيرة والراية التركية ترفرف بأعلى بناية بها، وحذو ذلك بالبحر آلة على هيئة باخرة حربية مربعة تشتغل في إخراج بقايا البواخر والأشياء التي ابتلعها البحر هناك إبان الحرب العظمى المشؤومة، ويلي ذلك مقبرة وتمثال تذكار للجيوش الإنجليزية التي أقبرت هناك، ثم بعد مسافة أخرى رأينا حصن آخر على هيئة البستيون عندنا بفاس، حديث البناء، كل هذا عن يسارنا بالشاطئ الأوربي، وفي مقابلته بالشاطئ الأسيوي قرية آهلة اسمها «مرؤوم قرية»، والبواخر التي أغلبها تركية ذاهبة آيبة، وكذلك المراكب القلاعية، وبعد أن تعدينا ذلك بنحو العشرين كيلومتراً، يتخللها بعض عمارات بالشاطئ الأسيوي وبعض آثار لبناءات هدمت بالشاطئ الأوربي، وصلنا لقرية وحصون «شناق قرية»، فرأينا بها عمارة كبيرة وهي بالشاطئ الأسيوي، وهو غالباً أنظر وأزهى من الشاطئ الآخر بما فيه من الجنات والأغراس ومناظر الغنى والعمران، وفي مقابلة «شناق قلعة» بالشاطئ الأوربي حصن عظيم وقرية عامرة «ماديتوس قلعة»؛ فالحصن قائم البناء (أفرى)[1]، ولقرية تحف به وهي في غاية الرونق والبهاء لجمال بناءاتها وتنسيقها وما يتخللها من الأشجار الباسقة والمآذن الشرقية اللطيفة، وكذلك «شناق قلعة» وصفها شيء واحد، إلا أن شناق قلعة أفسح مساحة وأكثر عمارة، كنا في محاذاتها على الساعة الثالثة بعد الزوال، فألقت مرساتها الباخرة حتى أتاها مركب بخاري جميل به طبيب الصحة التركي الذي نزل حينا إليه طبيب باخرتنا وأحد ضباطها وبقوا معه حصة من الزمن، وبعد ذلك سرح لنا المرور، وكذلك قصدنا زورق بخاري به عون ديوانه وبوليس تركيين، وهما في أحسن هندام وألطف زي وبعض الركاب، فظننت لأول وهلة أن البوليس والديواني أتيا للتفتيش كما فعل اليونانيون، ولكن علمت بعد ذلك أنهم ركاب يقصدون الأستانة لسبب، ثم إن عون الديوانة لما رآني تقدم لدي وسلم علي وسألني عن قصدي ومن أين أتيت بكل لطف واحترام، فأخبرته بالواقع فرحب بي كثيرا. بقيت الباخرة راسية هناك ساعة ونصف، وعند الساعة الرابعة والنصف أخذت في السير، وبين آونة وأخرى نرى حصنا هنا وقرية هناك، يطول بنا شرح واستيعاب الأوصاف والأسماء، إلى أن احلولك الظلام. وكان خروجنا من الدردانيل وابتداؤنا

(1) هكذا بالأصل.

في عبور بحر مرمرة على الساعة الثامنة مساء، وتأسفنا على عدم رؤيتنا قلعة غاليبولي بسبب الظلام، وغداة يوم الاثنين على الساعة السابعة صباحا وصلنا للقسطنطينية ذات العظمة والمجد والذكر الخالد بسلام.

من الأستانة العليا يوم الاثنين 5 نوفمبر 1929 م، محمد بن يحيى الصقلي.

الأسـتانة العليـة[1]

لما ألقت الباخرة مرساتها بميناء الأستانة، بقينا في انتظار الكمسار نحو النصف ساعة حتى (أنني)[2] وبرفقته اثنان من أعوانه ودخلوا صالة الكتابة، وصار خدمة الباخرة يعلمون الركاب للذهاب إليه، فدخلنا عليه فرادى فوجدناه جالساً جانب المائدة وعلى يساره العونان أحدهم بيده ورقة عريضة والآخر بيده دفتر، والكمسار يتناول من كل أحد جواز سفره، ثم يسأله من أين أتى وعن جنسيته وعمره وأين ولد وبأي محل يكون نزوله، والذي بيده الورقة يكتب ومن بيده الدفتر يبحث فيه عن كل اسم وهكذا حتى استغرق ذلك مدة أكثر من ساعة. وعندها رخص لنا في النزول، ولما أردنا الخروج من الباخرة وجدنا عونين من البوليس أيضاً بالباب يفحصون الجوازات حتى ينظروا تصحيحها من كمسارهم، وبعد المرور بالديوانية والتفتيش بها من المأمورين الذين رأينا منهم كل لطف ومجاملة، أخذنا سيارة (التاكسي) قطعنا بها من محل النزول بغلطة إلى إسطنبول لحي الشركسي، نزلنا بنزل «شاهين باشا»، وتلك مسافة طويلة. أما هذا النزل فهو كبير به طبقات أربع وبه آلة رافعة، ولكننا لم نجد بيتا به ذا فراش واحد فارغاً، ولما أن أوعدنا صاحبه بأنه بعد الظهر يفرغ لنا بيتاً يخصنا، تركنا به حوائجنا وقضينا للبوسطة الغربية منها، أرسلنا بعض مكاتب للمغرب، ثم أخذنا نتجول في بعض أزقتها الجميلة إلى أن ضاق ذرعنا من وحشة الغربة، فساقتنا حسن الصدف إلى المطبعة العثمانية، وهي أكبر مطبعة بها لنسأل عن كتبي سهينا عن عنوانه يشتغل ببيع الكتب العربية، فتعرفنا بحضرة صاحبها ومديرها الفاضل صاحب السعادة محمد صائم بك، الذي أكرم وفادتنا أتم إكرام ورأينا منه كل مجاملة ولطف، ثم سألنا عن محل نزولنا، فلما عرفناه به أخذ يحذرنا

---

(1) عدد 3328 بتاريخ: السبت 24 جمادى الثانية 1347 هـ موافق 8 ديسمبر/ كانون الأول 1928م.

(2) هكذا بالأصل.

مزيد التحذير للتحفظ على نفسنا خصوصاً بالأوطيل[1] وأن لا ننام مع الغير في بيت واحد به وأن لا نترك به حاجة مهمة لعدم الثقة وما يحصل عادة من السرقات، حتى أفعم نفسنا خوفاً، فعرفناه بأننا لم نجد بيتاً ذا فراش واحد به وأننا تركنا حوائجنا هناك به في بيت ذا ثلاث أفرشة، فأمرنا بأن نأتي بالحوائج للمطبعة يستودعهم لنا عنده، ثم طلب بالتلفون نحو خمسة نزل، يطلب لنا بيتاً خاصاً بنا فلم يجده، ولما أن رآنا ضقنا درعاً واسودت الدنيا في أعيننا أخذنا معه لبيته العامر، ثم خصص لنا به غرفة من أجمل الغرف، وقال لنا: «ها أنت ضيف عندنا إلى أن نجد لك محلاً»، فأمضينا معه ليلة من أشرف الليالي، سهرنا بها إلى منتصف الليل، وحرمه المصون معنا ونحن نتجاذب أطراف الحديث حتى تمكنت بيننا روابط الألفة والمحبة، ومن الغد لم يسمح لنا بالخروج من عنده بحال، مدعيا بأنه استأنس بنا وأنه تحصل له وحشية إن خرجنا من عنده، فبقينا بضيافته إلى يوم السبت الموالي يعني أربعة أيام، فانتقلنا لنزل «الحرية» «بحارة محمود باشا»، وهو نزل كبير نظيف به جنينة[2]، رغما عن إلحاحه في البقاء عنده، كثر الله من أمثاله.

الأستانة العلية[3] وحالتها الاجتماعية

والآن يجب علينا أن نقول كلمة في وصف الأستانة بإيجاز، فهي الأستانة العلية أو القسطنطينية العظمى، شهيرة الذكر عميمة الفخر ذات العظمة التي لا يدرك شأوها، والجمال المتناهي الذي يحار العقل في تصور كنهه ويعجز القلم أبلغ البلغاء عن وصف بعضه، فأين لي وأنا العاجز بأن أستطيع ذلك؟ لا والله ثم والله إنني لعاجز محتار!

تنقسم هاته البلدة العظيمة إلى ثلاثة مدن عظام، وهي غلطة وإسطمبول وبيرة، وثم تحف بها أقسام أخرى كثيرة مثل أيوب سلطان وأسكو تاري وقاضي كوى وهلم جراً. فأما إسطمبول فهي المدينة الشرقية وبها أهم المناظر الشرقية من المساجد والمدارس والمآثر العجيبة، يفصلها عن غلطة وبيرة القرن الذهبي وطرف من الفوسفور، نعم تربطهم قناطر بديعة يمر عليها الترامواي والعربات، ويدفع كل مار غرشاً واحداً وكل سيارة عشرة غروش، فيتكون من ذلك دخل له بال لكثرة المارة وازدحام الخلق. أما الترامواي فيتخلل كل أنهجها من

---

(1) الأوطيل: الفندق أو النزل.

(2) الجنينة بالعامية المصرية هي الحديقة أو البستان.

(3) الثلاثاء 27 جمادى الثانية 1347 موافق 11 ديسمبر/كانون الأول 1928 (عدد 3329).

أقصاها إلى أقصاها، وكذلك المراكب البخارية التي هي أشبه بالتراموايِ، هي أكبر وأفخم بكثير ولها طبقتان سفلى وعليا، عددها كثير ذاهبة آيبة بالبوسفور، والقرن الذهبي منتظمة السير أتم النظام كالترامواي، وأجرة الركوب بها طفيفة.

أما منازل إسطمبول فكلها فخيمة وكثير منها خشبي على هندسة بديعة، وعلى الغالب ذات ثلاث أو أربع طبقات، وبها أنهج وأسواق في منتهى البهاء والجمال، كل سوق يخص حرفة من الحرف كما هو عندنا بفاس[1] لكن هنا أبدع وأكبر، طرقاتها متسعة مرصوفة بالحجر المنحوت المربع، ولكن توجد بها بعض حارات قديمة مهملة. وأما غلطة فلها بعض الشبه بإسطنبول، إنما هي أجمل دوراً وأغزر تجارة. وأما بيرة فهي ذات عمارة كبيرة ودور ضخمة بديعة على الطراز الحديث، وبها يقطن العظماء والأغنياء وسفراء الدول، وبها النزل العظيمة وكذلك منزل كريم الشيم صائم بك، الذي كنا نقطع من المطبعة إليه بالسيارة ساعة واحدة وكل هذا في وسط المدينة، فانظر هاته العظمة! ولكل قسم وحارة منها له إدارة خاصة به من البلدية والبوسطة ومركز البوليس حتى أنه يفوق العشرين قسماً حسبما قرره لي صائم بك حفظه الله، والبوسطة التي دخلتها بقسم الشركسي بإسطمبول فخيمة البناء شاهقة العلو قبتها شامخة الارتفاع عظيمة الاتساع، ومن مستخدميها السيدات التركيات أيضاً.

وكذلك المدارس والكليات، أين ما ذهبت واتجهت أرى قصوراً عظيمة باهرة، فلما

---

(1) فاس: لا تحتاج مدينة فاس إلى تعريف، فشهرتها طبقت الآفاق وتوازي شهرة بغداد والقاهرة ودمشق والقيروان.. ولكن من باب التذكير فقط نقول: تأسست فاس على يد المولى إدريس الثاني الذي شرع في بنائها غرة ربيع الأول عام 192 هـ / 809 م واتخذها عاصمة له، وقد اختار لها موقعًا ممتازًا في ملتقى الطرق الرابطة بين المغرب الشرقي والمغرب الغربي وشمال وجنوب البلاد، بالإضافة إلى أنها تقع على وادي سبو بالأطراف الشمالية لسهل سايس على ربوة تقابل جبل زلاغ الذي يشرف عليها كمراقب من الجهة الشمالية. كما أنها قريبة جدًّا من سلسلة الأطلس المتوسط الشمالية الغربية. بني فيها جامع القرويين منذ حوالى سنة 250 هـ وتطور ليصبح أول وأكبر جامعة إسلامية في العالم الإسلامي بعدما قصده العلماء والطلبة من مختلف جهات البلدان الإسلامية في أفريقيا وآسيا. منذ تأسيسها وهي تسيطر بنفوذها السياسي والعلمي والروحي على البلاد حتى اليوم. ورغم أن المرابطين أسسوا مراكش واتخذوها عاصمة لهم واختار الموحدون مراكش عاصمة لهم أيضًا، إلا أن الأمر لم يكن يتم لأية سلطة تسيطر على البلاد إلا بعد موافقة مدينة فاس، سواء في الفترة الوسيطية أو الحديثة حتى القرن العشرين، ولكن يبدو من هذا أن مراكش نافستها عمليًّا في الدور السياسي كعاصمة، فكانت فاس عاصمة للأدارسة ثم المرينيين ولبعض ملوك الدولة السعدية والعلوية. أنظر:

الضعيف الرباطي: **تاريخ الضعيف**، تحقيق أحمد العماري، دار المأثورات، ط 1، 1986، ص 207 هامش 1402.

أسأل عنها الدليل يقول لي هاته مدرسة عسكرية وهاته كلية طبية وهاته لطب الأسنان وهاته للحقوق وهاته للتجارة وهاته للبنات إلخ، شيء لا يعد كثرة ولا يحصى غزارة، والحق يقال أن تركيا لأمة راقية رقياً باهراً بينا.

أما طقسها فمعتدل غير أنه مشوب برطوبة ويتقلب أحياناً باليوم، فلذلك أهلها يلبسون أدفأ الثياب وماؤها عذب فرات ونعمها كثيرة طيبة، سكانها يتجاوزون الثمانمائة ألف نسمة كلهم يلبسون القبعة إلا أئمة المساجد والوعاظ والخطباء فإنهم يلبسون العمامة، ولكن بيدهم رخصة من الحكومة بلبسها وقليل ما هم. أما الشيء الذي يلفت النظر وينم عن مزيد العظمة والجلال، فهو اللباس الرسمي من إداري وعسكري وبوليسي، فإنه كأعظم ما يكون عند الأمم الراقية العظيمة. نساؤها سفيرات الوجوه إلا ما نذر منهم، وأغلبهن رائعات الجمال وذوات لطف ورقة. أسعار المعيشة بها تقرب مما هي عليه ببلادنا السعيدة، إنما الغريب الذي لا يعرف اللسان التركي يصادف مشقة ويكون عرضة للنهب والسلب من صغار الباعة، فإنهم لا يراعون إلا ولا ذمة. ويوجد بها سوق للكتبية قرب جامع بايزيد لكنهم كلهم شديدوا المراس لا فائدة ترجى معهم، نعم كانت كتب نفيسة بالمطابع الكبرى لكن لسوء الحظ أغلبها نفد، إذ سبقنا السوريين والبعض من المصريين لاقتنائها لأننا وصلنا مؤخراً، لكننا وجدنا النصيب المقدر لنا.

أما النظام فقد تجاوز الحد من النفوذ والشد والربط، حتى أن الإنسان إذا أراد الخروج من أرضهم والإياب إلى وطنهم وبيده رخصة سفره مصادق عليها من طرف قناصلهم ومصححة من جانب بوليسهم، عند الدخول يحتاج إلى الذهاب إلى قسم بوليس ناحية نزوله وتجديد الرخصة، وأن يعطيهم ثلاث صور له ويدفع رسماً نقدياً وبعدها يأخذ رخصة من البوليس يذهب بها إلى الولاية وهناك يأخذون رخصة السفر مع الورقة ويعطوه موعدا يأخذها به وعند استلامها يدفع رسماً نقدياً أيضاً، ولقد صادفنا صعوبة ومشقة من أجل ذلك، هذا مع مراعاتهم لنا، وإلا فلا يتيسر للإنسان التحرك مطلقاً وقس عليه.

ومن جهة الجبايات والضرائب فإنها مرتفعة؛ حتى علمت أن صغار باعة الكتب يدفعون بالسنة للحكومة مائتي ليرة عثمانية ضريبة تجارية لكل واحد، والبقال يدفع من خمسمائة فأكثر وهلم جراً، ولكن لهم العذر في ذلك، إذ نهضتهم الهامة وجندهم القوي باحتياج لذلك. أما الليرة التركية فتساوي ثلاثة عشر فرنكاً إفرنسياً على التقريب، وهي أوراق من ذات الليرة الواحدة إلى ذات الألف ليرة، وعملة نحاسية ونيكلية من ربع غرش إلى خمسة وعشرين غرشا[1].

---

(1) يتبع، الآستانة في 15 نوفمبر/تشرين الثاني 1928، محمد بن يحيى الصقلي.

الأستانة[1]

وقد علمت أنه لا يرخص في لبس العمامة إلا للإمام أو الخطيب الواعظ فقط، على شرط أن يكون بيدهم رخصة بلبسها، ومن وجد لابسها وليس بيده رخصة يسوقه البوليس للاستنطاق ويحاكم، وكذلك من وجد من الوعاظ بمسجد يعظ الناس فيتعدى الحدود المقررة له في الوعظ يزجر ويعاقب. أما تدريس العلوم الدينية من فقه وحديث وكذلك تعليم القرآن (بالمكاتب)[2] والمدارس للأولاد منع منعاً باتاً، وقد علمت أنه كان من طلبة العلوم الدينية بالأستانة وحدها أزيد من عشرة آلاف طالب، ذهبت لحال سبيلها وحيل بينها وبين ما ترغبه. وعلمت أيضاً أن كثيراً من العلماء الكبار حكم عليهم بالسجن من عشرة سنين فأقل، ومنهم من حكم عليه بالإعدام لأسباب دينية، ورأيت إنذاراً بالجرائد من الحكومة يحض فيه الأئمة والمؤذنين وخدمة المساجد أن يتعلموا الكتابة بالحروف اللاتينية ومن لم يتعلمها منهم في مدة معينة (يرفض)[3] من وظيفته.

ثم إن القوم في شغل شاغل بالأستانة لتغيير عناوين محلاتهم من الكتابة بالأحرف العربية إلى اللاتينية[4]، في أي محل مررت أجدهم منهمكين في ذلك.

أما من جهه التدين فقد أديت الفريضة بمساجد عدة، فلم أرى من حاضري صلاة الجماعة بها إلا النزر اليسير، ومن العجب أنني رأيت النساء يصلون مع الرجال وهم سافري الوجوه! نعم، يوم الجمعة صليت بمسجد سيدنا أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه فكان ممتلئاً بالمصلين. أما المؤذنين والأئمة والخطباء فأغلبهم من ذوي الأصوات الشجية التي تأخذ بمجامع القلوب وتبعث في النفوس تأثيراً ليس له حد لم أسمع نظيره بقطر من الأقطار الإسلامية التي زرتها.

وأما الطرق فقد تلاشت وذهبت لحال سبيلها، والزوايا والمزارات أغلقت غلقاً نهائياً. ولقد جمعتني الصدف ليلة كنت مدعواً بها عند أحد الأكابر بتناول طعام العشاء مع ضابط من علية الضباط، فساق الحديث بيننا عن الأضرحة والمزارات التي منع فتحها، فما كان منه إلا

---

(1) الخميس 28 رجب 1347 - موافق 10 يناير/ كانون الثاني 1929 (عدد 3340).

(2) كذا بالأصل، والصواب: الكتاتيب جمع كتاب.

(3) في الأصل: يرفت، والصواب ما أثبتناه في النص.

(4) عن قرار الحكومة الكمالية استبدال الأحرف العربية بالأحرف اللاتينية والذي دخل حيز التنفيذ في 3 نوفمبر/ تشرين الثاني 1928 م، انظر: كارل بروكلمان: **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 5، 1968، ص 699 - 700.

أن قال لي: «حتى المساجد بعد سنة ستغلق ويمنع الدخول إليها لأجل الصلاة»، فقلت له: «لأي سبب؟ هل النهوض والتقدم يكون بغلق المساجد وجحود الدين؟ وإذا كان الأمر كذلك فلأي شيء الدول العظام بكافة القارات الأرضية مثل: إنكلترا وفرنسا واليابان وأمريكا وهن ما هن من غزارة العلم وضخامة الملك والتفوق في كل شيء بميادين العمل لم يفعلوا شيئاً من ذلك؟ فالنهوض له مقتضيات أخرى جوهرية، والتقدم أهم شرط من شروطه حرية الأديان والمعتقدات». فلم يجد جواباً ولم ينبث ببنت شفة. وهم يتجاهرون بشرب المسكرات الكحولية بالمقاهي؛ ذهبت ليلة لمقهى مع أحد العلية لأتفرج على جوق[1] طرب تركي، وهو مقهى من أهم المقاهي لا يؤمه إلا علية القوم، فلم أرى واحداً ممن دخله طلب شيئاً خلاف مسكر كحولي، ولكن الطرب يعني الموسيقى عندهم في غاية الكمال أنغامها شجية وسطا بين الأندلسي والمصري.

أما المعامل والمصنوعات فكثيرة بها، ومن أهمها: الزرابي وأواني النحاس والمنسوجات الصوفية والقطنية والسلاح وغير ذلك، والحركة التجارية نشيطة، ولهم براعة تامة في كل شيء يتعاطونه غير أن الحالة التجارية الآن في برود.

ومن جهة المناظر والمآثر بالأستانة فشيء ليس له حد ولا نهاية، وأهم شيء وأجله وأتمه محاسنا ينبغي رؤيته والتحدث عنه هو المساجد، فلو وفق الإنسان وأعطي فصاحة قس، واقتدار الجاحظ[2] على التعبير، وفلسفة ابن رشد[3]، وحكمة ابن سينا[4]، وبراعة ابن

---

(1) جوق: فرقة موسيقية.

(2) الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي المعروف بالجاحظ، البصري المعتزلي، العلامة المتبحر ذو الفنون، أخذ عن النظام، له تصانيف كثيرة جدًّا منها: كتاب «**الحيوان**» وكتاب «**البيان والتبيين**» وكتاب «**النساء**» وكتاب «**المعلمين**» وكتاب «**البلدان**»، توفي في المحرم سنة 255 هـ بالبصرة وقد نيف على تسعين سنة. **سير أعلام النبلاء** 11 / 526 - 530. **وفيات الأعيان** 3: 470 - 475. **تاريخ بغداد** 12: 212.

(3) ابن رشد: هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد القرطبي، العلامة، فيلسوف الوقت، ولد سنة 520 هـ، أخذ عن أبي مروان بن مسرة، برع في الفقه، وأخذ الطب عن أبي مروان بن حزبول، ثم أقبل على علوم الأوائل وبلاياهم حتى صار يضرب به المثل في ذلك، ولي قضاء قرطبة فحمدت سيرته، من تآليفه: «بداية المجتهد» في الفقه و«الكليات» في الطب و«مختصر المستصفى» في الأصول، وغيرها. مات محبوسًا في داره بمراكش سنة 595 هـ زمن الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف الذي مات بعده بشهر. **سير أعلام النبلاء**، ج 21، ص 307 - 310.

(4) ابن سينا: هو الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا الحكيم المشهور، الذي أحيا آثار أرسطو وأفلاطون في الفلسفة، وأبقراط وجالينوس في الطب، ولد في إحدى قرى بخارى عام 370 هـ، له عدة تصانيف منها: «كتاب الشفاء» في الحكمة، و«النجاة» و«الإرشادات» و«القانون» وغيرها، كما له=

خلدون[1]، لما قدر على وصف جزء يسير مما هي عليه من الجمال والرونق والبهاء والعظمة والثراء، إنه شيء يحير العقل و(يربك)[2] الفكر، رحم الله من بناها وأثابه على قدر عمله[3].

الأستانة[4]

أول مسجد زرناه بها هو مسجد أيا صوفيا[5] الشهير، الذي كان كنيسة الرومان ثم

= رسائل بديعة منها: رسالة «حي بن يقظان» ورسالة «سلامان وإسبال» ورسالة «الطير» وغيرها. توفي بهمذان يوم الجمعة من شهر رمضان سنة 428 هـ ودفن بها. أنظر: ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ج 2، ص 158 - 162. حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، دار الجيل، بيروت، ومكتبة دار النهضة، القاهرة، ط 13، 1991، ج 3، ص 392 و398 - 399.

(1) ابن خلدون: هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي، ولد بتونس في غرة رمضان سنة 732 هـ وبها نشأ ودرس، أخذ عن جماعة من المشايخ والعلماء منهم الشيخ محمد بن سعد بن نزال الأنصاري، والشيخ محمد العربي الحصايري، والشيخ محمد بن الشواش المزازي، والشيخ أحمد بن القصار، والشيخ محمد بن بحر، والشيخ محمد بن عبد السلام، ومحمد بن سليمان السطي، ومحمد بن إبراهيم الأيلي وغيرهم. وتولى خططًا وأعمالاً لملوك المغرب والأندلس من حفصيين ومرينيين وزناتيين ونصريين، واعترضته دسائس ووشايات، فسافر إلى مصر وأكرمه سلطانها الظاهر برقوق وولاه قضاء المالكية ثم عزل وأعيد، توفي يوم 26 رمضان عام 808 هـ وله مؤلفات كثيرة أشهرها تاريخه المسمى «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، ورسالة في المنطق، وأخرى في الحساب، وتلخيص لبعض كتابات ابن رشد، وشرح لقصيدة البردة، وتلخيص لكتاب «فخر الدين الرازي». أنظر ترجمته في: «**التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا**»، خاتمة المجلد السابع من تاريخ ابن خلدون ص 503 .**موسوعة المعارف الحديثة**، ترجمة مبارك وساط، منشورات عكاظ، الرباط، 2001، المجلد 7، المشاهير 1، ص 103 - 106.

(2) في الأصل: يلبك، والصواب ما أثبتناه في النص.

(3) يتبع، محمد بن يحيى الصقلي.

(4) عدد 3341 بتاريخ: السبت 30 رجب 1347 هـ موافق 12 يناير/كانون الثاني 1929م.

(5) كان هذا الجامع في الأصل كنيسة القديسة صوفيا، حول مباشرة بعد فتح القسطنطينية من قبل محمد الثاني إلى جامع العاصمة الرئيسي، حيث أدخلت عليه تعديلات قليلة من قبل المحراب الذي اصطنع في وسط جناح الكنيسة الجنوبي، والمنبر الذي أقيم على يمين المحراب على عمود الكنيسة الجنوبي الشرقي تجاه المقصورة بمشبكاتها الخشبية المذهبة، أما الصور التي كانت تزين الكنيسة، فقد غطيت بطبقة من الكلس، واستحدث بدلها نقوش ضخمة كتب بعضها بأحرف يبلغ طولها تسعة أمتار، والتي تنتظم اسم الجلالة واسم الرسول ﷺ وأسماء الخلفاء الأربعة مرقومة بماء الذهب على لوحات مستديرة كبيرة أقيمت على جدران الجامع وأساطينه، استحدثت على عهد مراد الرابع. أما من الخارج فقد اقتضى تكييف الكنيسة وفقًا للحاجات الإسلامية إنشاء أربع مآذن رفعت أولاها في عهد محمد الفاتح، ثم أضيفت إليها ثلاث أخر في عهد سليم الثاني وخلفائه، ونصب سليم فوق القبة =

حولت مسجداً بعد الفتح، فوجدناه مسجداً تحار في كنه عظمته وبهائه وبديع صنعه العقول!

ثم زرنا المسجد العظيم الذي أسسه السلطان محمد الفاتح(1)، فوجدناه من عجائب الدنيا على شبه مسجد السلطان أحمد الذي سيأتي وصفه، لكنه يفوقه كبراً وبه خزانة حفيلة، بها من نفائس الكتب الخطية شيء كثير وعلى الأخص مجموعة مصاحف قلمية على الرق، فيها مصحف سيدنا عثمان ابن عفان رضي الله عنه ومصحف سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ومصحف المولى عبد الرحمان بن زيدان(2) نقيب الأشراف بمكناس شبيه بها. عدد الكتب التي بها ثمانية ألف وتسعمائة كلها قلم حسبما قرره لنا القيم بها، وجعل المساجد بها مكاتب ثمينة أيضاً. وبقرب هذا المسجد ضريح بناه السلطان محمد الفاتح رحمه الله عليه قبة فخيمة جداً تحف بها مقابر رخامية عجيبة الصنع والرونق، ثم بعده زرنا جامع السليمانية، الذي رأينا في طريقنا إلية بالقرب منه، مقبرة قديمة بوسطها قبة مغلقة بها قبر قسطنطين الملك

= الرئيسية هلالاً من البرونز قطره ثلاثون مترًا. أنظر:
كارل بروكلمان: **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 5، 1968، ص 432 - 433.

(1) هو: محمد الثاني بن مراد الثاني، ولد في مارس/آذار سنة 1432 م، تولى عرش الإمبراطورية العثمانية بعد وفاة والده سنة 1451 م وإلى غاية 1481 م، لقب بالفاتح بعد تمكنه من الدخول إلى القسطنطينية سنة 1453 م، تميز بانفتاحه على ثقافة العصر وتطلعه إلى عالم تمتزج فيه ثقافات المتوسط. بنحادة عبدالرحيم: **العثمانيون**.. ص 298 - 299.

(2) هو: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عبد الملك بن زيدان بن السلطان إسماعيل ابن الشريف ابن علي الحسني العلوي السجلماسي، ولد بقصر المحنشة بمكناس في ربيع الثاني عام 1295 هـ الموافق لشهر أبريل/نيسان 1878، وبهذه المدينة تلقى دروسه الأولى بالضريح الإسماعيلي على يد ثلة من علماء المغرب الكبار مثل محمد بن عبد الهادي الفيلالي والطيب بن العناية بنونة ومحمد القصري العبدري... وبعد إنهاء دراسته بمسقط رأسه وبجامعة القرويين بمدينة فاس، تفرغ للتدريس والكتابة والتأليف وقرض الشعر، وعين نقيبًا للشرفاء العلويين بمكناس وزرهون، كما عين مديرًا مساعدًا للأكاديمية العسكرية بمكناس، توفي العلامة عبد الرحمن بن زيدان يوم السبت 21 ذي الحجة متم 1365 هـ الموافق 16 نوفمبر/تشرين الثاني 1946 م ودفن بالضريح الإسماعيلي بمكناس، وخلف عددًا ضخمًا جدًّا من المؤلفات منها إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة، العز والصولة في معالم نظم الدولة. أنظر ترجمته في: مؤرخ مكناس ابن زيدان، محمد بن عبد الهادي المنوني، **مجلة دعوة الحق**، **العدد** 93، 1966. المولى عبد الرحمن بن زيدان، محمد العرائشي، **مجلة دعوة الحق**، العدد 322، 1996. الزركلي خير الدين: **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ط 4، 1970 ج 3، ص 335. كتاب: عبد الرحمن بن زيدان، مؤلف جماعي، **سلسلة أعلام المغرب**، نشر مؤسسة أونا، مطبعة إيديال، 1998.

الروماني الذي بنى القسطنطينية وسميت باسمه، أما هذا المسجد فيفوق غيره مهابة وجلالاً بناه السلطان سليمان القانوني[1] رحمه الله، وأغلبه من الرخام والحجر الملون الذي لا يوجد نظيره، وله أربع مآذن عجيبة، وبوسط قبته ثريا عظيمة الكبر وبقربه متحف آثار الأوقاف، وهو متحف عظيم حكى لي الدليل أن به من النفائس الخطية والزرابي الأثرية والأشياء الكثيرة ما يحتاج إلى استيعاب النظر إليها الزمن الطويل، ولسبب ضيق الوقت وكثرة الشغل لم أزره.

وإن بواجهة هذا المسجد بدائرة محرابه من الشبابيك العديدة والمنمقة بالزجاج العراقي الملون البديع ما يخلب الألباب، وعن اليمين بقبته صف من الشبابيك النحاسية البديعة الترخيم التي كبر كل واحد منها على قدر عشرة القرويين[2] بفاس، إنه شيء لا يطيق وصفه أبلغ البلغاء الحاصل أنه لآيات الآيات وأعظم المآثر الباهرة! ثم زرنا جامع البايزيد وقد بناه السلطان البايزيد، فوجدناه يشبه بعض الشبه ما تقدم ذكره، ثم أدينا صلاة المغرب به فسمعنا من شجي صوت الإمام وبديع تلميذه بتلاوة القرآن ما يبعث في النفوس غاية التأثير، وكذلك بعد الصلاة جلس صبي يقرأ سورة من القرآن لا يتجاوز عمره الإحدى عشرة سنة فابدأ وأعاد لله أبوه !

ثم زرنا مسجد عتيق علي باشا وزير السلطان سليمان القانوني، ثم مسجد نور عثمانية بناه السلطان عثمان الثاني[3]، ثم مسجد محمود باشا ولي وزير السلطان وقد كان كنيسة وجدد

---

(1) سليمان القانوني: يسميه بعض المؤرخين سليمان الثاني، كما يسميه البعض الآخر سليمان خان الأول. حاز ألقابًا وتسميات عدة فهو «سليمان العظيم» و«سليمان القانوني» وطبقت شهرته الآفاق وحاز إعجاب الرعايا والمستأمنين والأجانب. ولد في سنة 1494 م، وهو ابن السلطان سليم الأول. تولى الأمير سليمان سنجق كافا زمن جده بايزيد، وفي عهد والده كان واليًا على مانيسا، وعندما وصل إلى الحكم لم يكن أي واحد يتكهن بقدراته على التدبير وتوسيع حدود الدولة. فقد قام السلطان بعدد كبير من الحملات حددها المؤرخون في 22 حملة عسكرية. تميز عصره بإصدار عدد كبير من القوانين ومنها التسمية التي استحقها عن جدارة واستحقاق، كما تميز عهده بحركة عمرانية منقطعة النظير. بنحادة: **العثمانيون**.. ص 296 - 297.

(2) القرويين: جامعة ينسب تأسيسها إلى فاطمة بنت محمد بن عبد الله الفهري أحد العرب المهاجرين من القيروان، وقد بنتها من المال الذي ورثته عن والدها. وكان الشروع في البناء سنة 245 هـ. وتعتبر القرويين من أقدم الجامعات الإفريقية، وقد عرفت نشاطًا عظيمًا في مختلف فروع المعرفة أيام الموحدين والمرينيين ثم الأشراف السعديين والعلويين. أنظر: حركات إبراهيم: **المغرب عبر التاريخ**، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط 3، 1993، ج 1، ص 126 - 128.

(3) عثمان الثاني: هو ابن أحمد الأول، اعتلى العرش سنة 1618 م مخلفًا أخاه الأصغر مصطفى الأول، ولم يحكم سوى أربع سنوات وضعته في مواجهة مع جيش الانكشارية عندما حاول إصلاح المؤسسة العسكرية، وانتهى الأمر بخلعه واغتياله في قلعة يدي قوله. بنحادة: م.س، ص 297.

بناءها، على جانب محرابه شمعدانان عظيمان بها شمعتان طول الواحدة نحو الثلاثة أمتار وسمك دائرتها من الأسفل نحو الثمانين سنتيمتر قديمتان يزيد عمرها على الثلاثين سنة، ومنبره من الرخام الأبيض عجيب الصنع كأنه قطعة واحدة عظيم الارتفاع.

ثم زرنا مسجد السلطان أحمد الأول، وهذا المسجد من أهم وأعظم وأفخم المساجد بها ذا منارات عجيبة الصنع عظيمة الارتفاع، وهيأة صنعه على كيفية صحن مسجد الكعبة المكرمة بمكة، وما يذكر من تاريخ هذا الجمع أن السلطان أحمد الأول[1] كان وقت بنائه يشتغل مع العملة مرة في الأسبوع اكتساباً للأجر والثواب. بقربه رأينا مقبرة قديمة بها أضرحة رخامية بديعة الصنع وبقربها فسحة مسلتان عظيمتان على أحدهما كتابات هيروغليفية وبيزنطية، أما حيطان هذا المسجد من الداخل فكلها رخامية، وهو عظيم المساحة قبته من عجائب الدنيا طولها ست وستون خطوة وعرضها كذلك وارتفاعها عظيم محمولة على أربعة سواري من الرخام الأبيض البديع سمك الدائرة الواحدة منهم ثلاثون خطوة، أما عن النقوش والتراخيم والتمويه بالذهب والألوان البديعة فحدث عن البحر ولا حرج شيء يحير العقول! منبره من الرخام هائل الكبر بديع الصنع به اثنان وعشرين من الدرج وهو من العجائب لبديع صنعه وعجيب نقوشه وتراخيمه ومحرابه كذلك، وبجانبيه شمعدانان وشمعتان عظيمتان كما رأينا في المسجد المتقدم، وقبته مفروشة كلها بالزرابي العجمية والتركية الثمينة وكل المساجد كذلك، دائر هاته القبة كلها شبابيك عجيبة لها أبواب من الزجاج وأبواب خشبية مرصعة بالصدف مخرمة بالنقوش الدقيقة ارتفاع كل منها نحو الثلاثة أمتار وعرضه متران بدائرتها أربع بلاطات ذات سواري وأقواس رخامية عجيبة، أبوابها عظيمة الكبر مصفحة بالنحاس المنقوش على هيأة أبواب القرويين بفاس ولكن هاته أبدع وأفخم.

ثم زرنا مسجد رستم باشا[2] وزير السلطان سليمان القانوني، وهو من الآثارات النفيسة

(1) أحمد الأول: هو أكبر أبناء السلطان محمد الثالث، ولد في مانيسا في أبريل/ نيسان 1590. تولى السلطة ما بين 1603 و1617 م، وكان عمره لا يتجاوز أربعة عشر ربيعًا، تميز عهده بالحروب الطويلة ضد النمسا التي ورثها عن والده، والتي أنهاها بتوقيع معاهدة Szitva-Torok سنة 1606. كان أحمد الأول سلطانًا أصوليًا، حيث أولى اهتمامًا كبيرًا للأمور الدينية فبنى عددًا كبيرًا من الجوامع لعل أهمها وأعظمها جامع السلطان أحمد المعروف بـ «الجامع الأزرق»، كما اهتم بالتعليم الديني من خلال بناء عدد من المدارس، كان أحمد الأول شخصية قوية حاول التحكم في دواليب السلطة دون اللجوء إلى نهج سياسة التصفيات، إلى درجة أنه لم يلجأ إلى قتل أخيه مصطفى جريًا على العوائد العثمانية التي كان معمولاً بها. توفي في سن مبكرة إذ لم يكن عمره يتجاوز الثامنة والعشرين. بنحادة: **العثمانيون.** ص 291 - 292.

(2) رستم باشا: صهر السلطان سليمان القانوني، إذ كان متزوجًا ابنته الأميرة مهرماه، ولد في سراييفو =

كائن بحي يقال له «تحته قلعة» بإسطامبول، حيطان قبته مزلجة[1] بالفخار الصيني العجيب من الأسفل إلى الأعلى، منبره رخام قديم جدا عظيم بديع الصنع.

ثم يوم الجمعة يممنا مسجد أبي أيوب الأنصاري أقدس جامع في الأستانة، والذي بجنبه ضريح رافع اللواء النبوي سيدنا أبي أيوب الأنصاري[2]، أقلتنا عربة صغيرة يجرها فرس واحد من حي شيشلي بيرة، أخذت تسير بنا في محل كله جنات باسقة الأفنان قاصدة بنا شاطئ القرن الذهبي، وقبل الوصول إليه مررنا بمقبرة الإسرائليين التي تمر الطريق بوسطها؛ وهي عظيمة الاتساع مهملة أحجار مقابرها كلها عليها نقوش عبرانية مبعثرة هنا وهناك، ثم منها مررنا بحي اليهود وهو حي كبير بناءاته كلها خشبية قديمة تلوح عليه آثار الفاقة، ومنه وصلنا للشاطئ بعد خمسة وأربعين دقيقة، فركبنا مركباً بخارياً كبيراً قطعنا به الخليج للشاطئ الآخر، فنزلنا بحي أيوب سلطان وهو حي كبير مستقل كمدينة صغيرة وبه يوجد المسجد الذي قصدناه، وبعد النزول فيه زرنا مقبرة بها ضريح شيخ الإسلام أبي السعود أفندي[3]، ورأينا قبة ضريح السلطان محمد رشاد الخامس[4] وبقربها مدرسة عظيمة بناها هو من ماله الخاص.

= من أسرة بوسنية، وتلقى تعليمه في البلاط السلطاني وبعدها تولى عدة مناصب في الإدارة العثمانية كان أولها أن أصبح واليًا في الأناضول سنة 1538 م، ثم تولى منصب الصدارة العظمى لمرتين الأولى ما بين 1544م و1553 والثانية ابتداء من سنة 1555 إلى سنة وفاته سنة 1561 م. بنحادة: م. س، ص 308.

(1) مزلجة: مبلطة بالزليج أو الرخام.

(2) هو خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد عمرو بن عوف بن غنم بن مالك بن النجار بن ثعلبة بن الخزرج، صحابي جليل، شهد بدرًا وغيرها من المشاهد، له رواية، مات سنة 52 هـ. انظر ترجمته عند: الإمام الذهبي محمد بن أحمد بن عثمان: **سير أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ط 11، 1996، ج 2، ص 402 - 413.

(3) أبو السعود أفندي: شيخ الإسلام الرابع عشر في الدولة العثمانية، كان يسمى أيضًا خواجه باشا، درس على كبار العلماء العثمانيين أمثال ابن كمال وسعيد قرماني، حظي منذ حداثة سنه بلقب «جبلي» من قبل السلطان بايزيد الثاني. تولى التدريس في مدارس متعددة، وفي سنة 1522 م عينه السلطان سليمان القانوني مدرسًا في مدرسة داود باشا، وعين بعدها قاضي عسكر الروملي قبل أن يصبح شيخ الإسلام سنة 1545 م. لقب أبو السعود عند العثمانيين بأبي حنيفة الثاني لتضلعه من العلم، ومن بين أهم فتاويه الحكم بجواز شرب القهوة وبجواز «مسرح القره كوز». بنحادة: م. س، ص 307.

(4) محمد رشاد الخامس: هو ابن السلطان عبد المجيد، ولد في نوفمبر/ تشرين الثاني 1844 م، عاش زمن حكم السلطان عبد الحميد منعزلاً في البلاط السلطاني، وإذا كان قد وصل إلى الحكم فبفضل «الشبان الأتراك»، إذ يعتبر بمثابة أول سلطان دستوري في تاريخ الدولة العثمانية. ولم يؤثر في الأحداث التي عرفتها الدولة زمن توليته، ففي عهده فقدت الدولة العثمانية سيطرتها على البوسنة والهرسك وبلغاريا التي استقلت في أكتوبر/ تشرين الأول 1909 م. بنحادة: م. س، ص 299 - 300.

وبعد ذلك وصلنا لمقام سيدنا أبي أيوب رضي الله عنه فتبركنا بزيارته من الخارج، فهو من جملة الأماكن التي أغلقت ولكننا نظرنا داخل قبته من شباك فرأينا من عظمة ذلك المكان وجلاله ما لا يطيق الفكر تصوره أو التعبير عنه! ثم دخلنا للجامع المسمى به فوجدناه مسجداً ذا بهاء وجلال، أدينا فريضة الجمعة؛ خرج الخطيب على الساعة الثانية عشرة وربع لابساً جبة خضراء، وهو كمل طويل القامة جميل الوجه كث اللحية، فصعد المنبر، وبعد الآذان أخذ يشنف الأسماع بصوته الجهوري الشجي يلحن الخطبة تلحيناً بديعاً يأخذ بمجامع القلوب، افتتحها بقوله: «الحمد لله الذي خلق القول وعلمه البيان وبعث سيدنا محمداً رحمة لكافة بني الإنسان»، وختمها بآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1]، فكانت كلها عربية، إلا أنه فسر بعض الآيات والأحاديث باللغة التركية، ولما خرجنا من المسجد رأينا بفسحته الخارجية ضريح الغازي أدهم باشا الذي انتصر على اليونان زمن السلطان عبد الحميد[2] وعليه قبة بديعة الجمال، ويحف بضريحه من الأربعة أركان قنابل من التي استعملها في تلك الحرب رحمه الله[3].

تنبيه:

أرجو من القراء الكرام المعذرة لعدم التأنق في كتابة هاته الرحلة وتنسيق عباراتها بلغة متينة بسبب العجلة وعدم الوقت وتلبك الفكر من ثلاث أوجه: أولاً الاشتغال بالتجارة وثانياً زيارة الأماكن وثالثاً تعلق الفكر بالأهل والوطن، والكريم من عذر.

الأستانة[4]

ثم ركبنا المركب البخاري من حي سلطان أيوب على الساعة الثانية إلا ربع بعد الزوال

(1) سورة النحل، الآية: 90. لقد وردت الآية في النص مبتورة في أولها ويوجد خطأ في آخرها كالتالي ﴿الله لا ينهىٰ عَنِ الفَحْشاءِ والمُنكَرِ والبَغْيِ يَعِظُكُمْ لعلّكُم تذكَّرون تَتَّقُونَ﴾. والصواب ما أثبتناه من القرآن الكريم.

(2) السلطان عبد الحميد الأول: ولد في مارس/آذار عام 1725 م، تولى العرش في سن متقدمة سنة 1773 م بعد أخيه مصطفى، واجه منذ بداية عهده المشاكل المترتبة على التغلغل الأوروبي في الدولة العثمانية، فقد انطلق عهده بالتوقيع على معاهدة كوجد قينارجة والصراع المرير من أجل الحفاظ على المكتسبات العثمانية في البحر الأسود خصوصًا بعد ضياع القرم. توفي السلطان عبد الحميد سنة 1789 م. بنحادة: م. س، ص 293 - 294.

(3) الآستانة يوم الاثنين 12 نوفمبر/ تشرين الثاني 1928 م، محمد بن يحيى الصقلي.

(4) الثلاثاء 10 شعبان 1347 موافق 22 يناير/ كانون الثاني 1929 (عدد 3345).

ونزلنا منه بإسطنبول على الساعة الثالثة، وقد قطعنا هاته المسافة بالقرن الذهبي العديم المثال، وكانت المناظر البديعة عن اليمين والشمال من قصور شاهقة وحدائق موقنة وأجنة وأغراس وارفة الغلال ومراكب شراعية وبخارية تجوب عباب ذلك الجدول الرقراق، تخلب الألباب وتجلب الراحة والأنس للأنفس فتنسى ما ألـم بها من تعب واكتئاب.

متحف طوب قبواسراي

ثم زرنا متحف قصر طوبقبوا العجيب؛ وهذا القصر بناه السلطان محمد الفاتح رحمه الله وهو يطل على البوسفور ويعلوه علواً كبيراً فيرى الإنسان منه منظراً خلاباً يروق للنظر ويحلو للنفس، وكانت به سكنى أغلب السلاطين العظام من آل عثمان، وبه غرف ومقاصير بديعة بفرشها وأثاثها على ما كانت عليه، ومن أغرب ما رأيته ببعض الغرف به، ثريات بديعة تتدلى من وسطها عقود من الجواهر الكريمة التي لا تثمن! وكل غرفة منها كانت مخصصة لواحد من رجال الحاشية السلطانية، ومن وزير أكبر ورئيس تشريفات وطبيب ورايس خصيان وأستاذ أبناء السلاطين، ومحل الأستاذ ينقسم إلى أقسام منها ما هو مخصص للتدريس ومنها للمطالعة ومنها محل نوم الأستاذ، وفيها أيضا مسجد للصلاة وقس على هذا.

ثم أن الغرف الداخلية الكبرى خصصت لعرض التحف والمخلفات السلطانية من عهد نشأة الدولة العثمانية إلى الآن، وإنها لتحف حقيقة لا تثمن بقيمة؛ فيها من أواني الفخار الصيني البديع وكذلك الياباني والفارسي والروماني الألوف المؤلفة، ومنها ما يرجع تاريخه لقرون بعيدة، ومنها ما هو مرصع بالحجارة الكريمة الماس نادر الوجود وغيره، وكذلك الأواني الذهبية شيء كثير يفوق الحصر. ولقد رأيت طشوت[1] من الذهب الخالص شبابيكها مرصعة بالألماس البديع النادر المثل، وكذلك قل عن كل شيء يا لله إنه لشيء يحير العقل ويدل على العظمة المتناهية! ثم من عجيب ما رأيت بها غرفة جثت منتصبة القامة مصنوعة تمثل قامة السلاطين آل عثمان من جدهم الأول عثمان[2] إلى السلطان عبد

(1) طشوت: بالتركية طشتخاناة، أي الموضع الذي تحفظ فيه ثياب السلطان ومختلف أنواع الأحجار الكريمة والأختام والسيوف وغيرها. رينهارت دوزي: **تكملة المعاجم العربية**، ترجمة محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1980، المجلد 7، ص 52.

(2) عثمان: هو الذي تنسب إليه الدولة العثمانية، كان أحد أبناء أرطغرل وتولى بعده سنة 1290م، وإذا كان عثمان قد عاش إلى سنة 1326 م، حيث حضر الفتح العثماني لبورصة كما يؤكد ذلك ابن خلدون وبعض المؤرخين المعاصرين، إلا أنه لم يكن يحكم أقله منذ سنة 1324 م. بنحادة: م. س، ص 297.

المجيد[1] ما عدى الوجه، كل جثة عليها ألبسة صاحبها الحقيقية من الخز والديباج والذهب وعلى رأسها عمامته الحقيقية وتاجه، شيء تحير في كنه جماله وعظمتة العقول! ومما ألفت نظرنا على الخصوص منها تيجانهم وما تحلت به من بديع اللآلئ، وعلى تيجان السلاطين سليمان الثاني[2] وأحمد الثاني[3] ومحمد الرابع[4] وهو يرتدي عدة حربه أسفل ثيابه وعلى رأسه خوده من الذهب مرصعة باللآلئ صنعها بديع، ثم سليم الأول[5] وبايزيد الثاني[6] والسلطان محمد الفاتح بتاجه ياقوتة خضراء بحجم بيضة الدجاجة وبصدره معلق خنجر مرصع بالألماس وبأعلاه ثلاثة أحجار من الزمرد الأخضر أصغرها بتاجه يسيرا، ولكن صفاء هاته الأحجار وخضرتها اليانعة شيء لا يرى في هذا الزمان! وكذلك رأيت بتاج السلطان بايزيد من الجواهر الكريمة ما هو بقدر بيض الحمام ومن الألماس ما استدارته تقرب من استدارة الفرنك.

---

(1) عبدالمجيد: هو الابن البكر للسلطان محمود، ولد في أبريل/نيسان عام 1823 م، وتولى العرش في يوليو/حزيران عام 1839 م، وقد عرف عن عبد المجيد رغبته الملحة في إصلاح الدولة والمجتمع، فبمجرد اعتلائه العرش أصدر أول مرسوم إصلاحي شامل في الدولة العثمانية ويتعلق الأمر بخط كولخانه وبعد مرور أقل من عشرين سنة أصدر الخط الهمايوني. توفي في يونيو/تموز عام 1861 م. بنحادة: م. س، ص 294.

(2) سليمان الثاني: تولى الحكم ما بين 1687 م و1691 م، وذلك بعد خلع أخيه من أبيه محمد الرابع سنة 1687 م، وقد ورث عن أخيه أزمة خانقة، ومن ثمة فقد تميز عهده بالكثير من الإجراءات المالية والنقدية ووضع عدد من الإصلاحات الإدارية. بنحادة: م. س، ص 297.

(3) أحمد الثاني: هو ابن السلطان إبراهيم، ولد في فبراير/شباط 1643 م وتولى العرش بعد أخيه سليمان الثاني سنة 1691 م، كان ضعيف الشخصية منصرفًا إلى ملذاته كثير الإفراط في الشرب إلى درجة أنه مات بسبب داء الاستسقاء في فبراير/شباط 1695 م، ودفن بالقرب من قبر السلطان سليمان القانوني. بنحادة: **العثمانيون**.. ص 292.

(4) محمد الرابع: هو ابن السلطان إبراهيم الأول، ولد في يناير/كانون الثاني عام 1642 م، تولى العرش سنة 1648 م وعمره لا يتجاوز سبع سنوات. لم يهتم كثيرًا بشؤون الحكم بسبب صغر سنه في البداية وبسبب وجود صدر أعظم نافذ وقوي هو محمد كوبرلي. في 8 نوفمبر/تشرين الثاني 1687 م عزل السلطان محمد الرابع وتوفي بعد ذلك بخمس سنوات. بنحادة: م. س، ص 299.

(5) سليم الأول: تولى السلطة عقب ثورة عارمة على والده بايزيد الثاني سنة 1512، وهو أول سلطان عثماني حمل لقب خادم الحرمين الشريفين باعتباره فاتح مصر. توفي عقب مرض قصير ألم به في الطريق بين إسطنبول وأدرنة في 21 سبتمبر/أيلول 1520 م. بنحادة: م. س، ص 294 - 295.

(6) بايزيد الثاني: هو السلطان السابع في تاريخ الدولة العثمانية، حكم خلال الفترة الممتدة من 1481 و1512م، ورغم الصراعات الداخلية التي واجهها، استطاع مواصلة حركة التوسع العثماني في شبه جزيرة البلقان، وفي سنة 1512 ونتيجة لتمرد في صفوف الإنكشارية قرر السلطان بايزيد الثاني اعتزال الحكم لمصلحة ابنه سليم والاستقرار بمسقط رأسه لكنه مات أثناء الطريق. بنحادة: م. س، ص 293.

وكذلك مجموعة لسيوف السلاطين ومعها سيف قسطنطين باني الأستانة، وكل واحد منها له قيمة عظيمة لنفاسته وما تحلى به من بديع اللآلئ والجواهر.

ومن الذخائر النادرة به تخت للسلطان شاه إسماعيل[1] ملك الفرس، الذي غنمه السلطان سليم الأول في غارته على فارس، وهو تخت عظيم من الذهب الخالص مرصعاً بالجواهر والدرر البديعة.

وعصا السلطان عبد الحميد التي أهداها له أحد ملوك الهند مرصعة كلها بالألماس في صنع عجيب يحار العقل في كنهه !

وسبسي[2] كبير لشرب التنباك طوله نحو المتر ونصف من الذهب مرصع بالألماس ورأسه حجر يماني كبير بديع، ثم عرش السلطان أحمد الثالث[3] وهو أكبر من عرش الشاه إسماعيل، وعليه قبة فخيمة مرتكزة به وبأعلاها تاج مرصع بالحجارة الكريمة، الكل من الذهب الخالص، يزن قناطير و بوسطه قبته مدلاة بسلسلة ذهبية وردة منبسطة صنعت من الذهب تتدلى من وسطها ياقوتة خضراء أكبر حجما من بيضة الإوز.

ثم يد سيدنا يحيى الحواري عليه السلام في غشاء من قضبان الذهب الخالص كالشبكة تامة الأعضاء غير أنها يبست، وغشاؤها الذهبي مرصع بالحجارة الكريمة أيضاً وكذلك جمجمته مغطاة بصفيحة من الذهب مرصعة أيضا باللآلئ موضوعة في صندوق من البلور تمسكه أضلاع من الذهب على هيأة مثمنة بديعة.

ثم تخت على هيأة السرير لكنه صفيحة واحدة من الذهب الخالص طوله نحو المترين

(1) هو أبو المظفر شاه إسماعيل الصفوي، مؤسس الدولة الصفوية في بلاد فارس (إيران)، ولد سنة 1487م، وخرج مطالبًا بعرش أبيه منذ سن الثالثة عشرة من سلطان التركمان علي بك جاقرلي الذي أخرجه من أربيل فانكفأ إلى أستاره على بحر قزوين، وبعد استيلائه على تبريز سنة 1502، توج ملكا (شاه) على بلاد فارس، وجعل التشيع مذهب الدولة الرسمي. توفي سنة 1524 م حينما كان يزور أربيل، وليس له من العمر غير ثمان وثلاثين سنة. أنظر: كارل بروكلمان: **تاريخ الشعوب الإسلامية**، م. س، ص 496 - 499.

(2) سبسي: عود طويل مجوف من الداخل يركب عليه رأس صغير مصنوع من الخزف يملأ بالتبغ أو الحشيش.

(3) أحمد الثالث: هو ابن السلطان محمد الرابع، ولد سنة 1673 م، تولى العرش ما بين 1703 و1730 عقب خلع أخيه مصطفى الثاني نتيجة تمرد الانكشارية. تميز عهده من الناحية العسكرية بحروب ضد بطرس الأكبر والبندقية حيث تمكن من انتزاع جزيرة موره كما تميز بحروب مع النمسا التي تمكنت من بلوغ بلغراد وانتزاعها من الأتراك سنة 1717 م. بنحادة: م. س، ص 292.

وعرضه متر مرصع بالزمرد وعليه ملحقة من الخز مطرزة بالذهب وعليها ملاءة من الأطلس الناعم مرصعة بالجواهر الكريمة على هيأة بديعة، وهو عرش التشريفات في الأعياد، ويقابله عرش آخر على هيأته من الأبنوس الأسود المطعم بالعاج وعليه غطاء مرصع بالجواهر الفخيمة وهو عرش السلطان مراد الرابع[1].

وصندوق كانت توضع به البردة النبوية من الذهب مرصعة بالحجارة الكريمة طولها نحو السبعين سنتيمترا صنعت لها خصيصا بأمر من السلطان مراد الثالث[2].

وأيضاً بهذا القصر العظيم قبة هائلة مقفلة بها المخلفات النبوية، كانت تفتح كل يوم جمعة والآن أقفلت من جملة ما أقفل بأمر من الحكومة الكمالية.

وأعظم وأفخم شيء رأيناه من أقسام هذا القصر منزل السلطان عبد المجيد؛ وهو يحتوي على مراح وأربعة مقاصير وبه من الأثاث والرياش والأشياء الثمينة ما لا يقدر ويحار النظر في راية محاسنه، وحيطانه مزينة بأربع صور زيتية عظيمة الكبر، بديعة الصنع، تمثل ذلك السلطان على هيئات مختلفة ولها إطارات فخيمة وصورتان أيضاً لوالده محمود وشيء يطول شرحه.

ثم دخلنا لبيت طبيب السراي، فوجدناه مؤثث على حاله لم يتغير به شيء، كل حاجة مرتبة على حالها من كتب طبية قلمية وأدوات لصنع الأدوية ومستحضرات طبية مقطرة في قناني بلورية مذهبة ذات ألوان مختلفة عطرية الرائحة تنبعث منها روائح ذكية رغماً عن كونها مقفلة.

ثم دخلنا لبيت الوزير مصطفى باشا، فوجدناه من أبدع ما أنتجته قرائح الإنسان من دقة الصنعة وغرابتها؛ سقفه ملبس بغطاء ذهبي ذي نقوش وتخاريم عجيبة قديمة الصنع، أصلح آخر مرة منذ مائتين وعشرين سنة.

---

(1) مراد الرابع: تولى السلطة عام 1623 م، وعمره لا يتجاوز إحدى عشرة سنة، أعاد الهيبة إلى الدولة وعمل على تقليص المصاريف ومراقبة مالية الدولة بشكل حازم. وقد أظهر الحزم نفسه في كبح جماح الانكشارية وتخليق الحياة الاجتماعية ففي عهده تم منع استهلاك التبغ والقهوة في إسطنبول. توفي سنة 1640 م في الوقت الذي كان يستعد لتوجيه حملة على ملطة. بنحادة: م. س، ص 302.

(2) مراد الثالث: تولى السلطة ما بين 1574 و1595، كان على سيرة والده سليم، فقد كان لا يجد الوقت للتفكير في تدبير شؤون الدولة حيث كان منشغلاً بلذات البلاط، إذ تذكر النصوص أنه كان له ما يزيد عن أربعين جارية أنجبت له مائة وثلاثين ابنًا، كما كان مولعًا بالصيد ونظم الشعر، فترك أمور الدولة بين يدي والدنه نور بانو. توفي سنة 1595 وعمره لا يتجاوز 49 ربيعًا ودفن بالقرب من أيا صوفيا حيث يوجد ضريح يتكون من أربعة وخمسين قبرًا هي لنسائه وأبنائه. بنحادة: م. س، ص 302.

ثم زرنا قصر بغداد؛ وهو آية من الآيات، عبارة عن قبة مربعة حيطانها كلها ملبسة بالغيشاني البديع من الفخار الصيني، وقبتها مموهة من الداخل بالذهب والألوان البديعة على نسق يخلب الألباب، وأبواب شبابيكها خزائنها كلها من الأبنوس المطعم بالصدف بصنع عجيب في غاية الرونق والبهاء، وبها مكتبة سلاطين آل عثمان؛ وهي من أعظم وأغنى المكاتب في الدنيا بها من النفائس ما لا يثمن، غير أنها ويا للأسف مغلقة لا تفتح.

وقد تعرفنا في هذا المتحف بالكمسار الفاضل السيد عبد الحفيظ أفندي؛ وهو شاب ذا مهابة من أبناء سوريا وظيفه كمسار محافظ على هاته السراي وكنوزها، وتحت إمرته طائفة من البوليس المسلح، وكان له الفضل علينا في إطلاعنا على كل شاذة وفادة به وعلى أشياء لولاه لما تسنى لنا الوصول إليها، فنشكره على كرم نفسه وطيب أخلاقه كثر الله من أمثاله[1].

الأستانة[2]

وفي الغد زرنا متحف الآثار، فرأينا به العجب من آثار القرون الأولى والأعصر الخالية، فما شآت من تماثيل وأصناف وأضرحة وهياكل وأواني ونقود وأدوات وسلاح وغير ذلك مما يطول شرحه.

ومما ألفت نظرنا به على الخصوص ضريح ملك صيدون؛ وهو من العجائب قطعة من الرخام ثم مومياء يعني جثة محنطة ثم تابوت قبر آخر لأحد ملوك صيدون مصنوع من الحجر الأسود وغطاؤه تمثل شخص ذلك الملك لا ينقصه إلا التكلم، مسطر كله بالكتابات الهيروغليفية والصيدونية ومومياء أيضاً، ثم هيكل عظيم هائل الجثة يمثل صنم أشوري اسمه أبيس ذا لحية عجيبة وخلقة غربية منجعة.

وأربعة ألواح صور من ينظرها يتخيل له أنها صور زيتية لدقة صنعها؛ وهي من الفسيفساء الموزاييق يعني الحجارة الدقيقة الملونة؛ وهي من آثار البيزنطيين تمثل أربعة فصول السنة الربيع والشتاء والصيف والخريف، اثنان منها تمثل وجوه نساء وواحدة وجه أمرد والأخرى وجه رجل ملتح.

ورأس الإله جوبتير ورأس للإسكندر الكبير وجثة له الكل من الرخام وتمثال لنفس الإله

(1) يتبع، محمد الصقلي.

(2) الثلاثاء 17 شعبان 1347 موافق 29 يناير/كانون الثاني 1929 (عدد 3348).

الرومان ثم هيكل لبوسيدون وآخر لزغس أيضاً يقابله وتمثال لهرمس الحكيم ولوحة كبيرة من الفوسيفساء (الموزاييق) بها رسوم عديدة عجيبة أظنها كانت بلاطاً لأحد القصور القديمة.

ومنبر للخطابة بمثابة كرسي من الحجر الملون قطعة واحدة، رأينا به من الألوان الأسود والأغبر والأخضر والأصفر، صنع الله الذي أتقن كل شيء، وله ثلاث درجات آثار الأعصر الأولى وهو شيء أظنه لا مثيل له في العالم.

ثم هيكل لفيلبوس والد الاسكندر، وهيكل للإمبراطور ماركوريل؛ وهو جميل الصورة ذا لحية لطيفة وبزة ظريفة وآخر يقابله للإمبراطور أدريانوس.

وبالدور الأعلى من هذا المتحف العجيب رأينا بساطاً من الفسيفساء بديع الصنع يمثل صور ستة أشخاص، وعليه كتابة أحرفها تشبه الأحرف العربية ولعلها نبطية وجد بأوربا يرجع تاريخه للقرن الثالث قبل الميلاد.

وبه من نفائس الذخائر السلطانية أواني صينية وذهبية وفضية وفخارية شيء كثير لا يحصى ولا يقدر له ثمن،كل ذلك وجد بقصر يلدز مسكن السلطان عبد الحميد رحمه الله، من وجملتها: تمثال لهيركول من البرونز صغير الجثة بديع الصنعة والناظر إليه يتخيله من الأحياء يريد التكلم، بيده اليمنى عصا واضعها على كتفه وبالأخرى قضيب ومعطف أيضاً هيكل لجوبتير أصغر منه.

والعجب العجاب هو ضريح أرطميس؛ الذي طوله نحو الثلاثة أمتار وعرضه متران وعلوه متران ونصف تقريباً وبما هو مخرم بارز به من صور الأشخاص والحيوانات ما يفوق العد والحصر، وكذلك أضرحة أخرى تشبهه ولكنها أصغر منه لم نجد الوقت لاستيعابها واستقراء أسمائها الكل من الرخام الأبيض البديع ثم بلاطان آخران من الفسيفساء؛ طول الواحد منهما تسع خطوات وعرضه أربع عليها صور حيوانات وطيور وآدميين بديعة الصنع كبيرة القيمة.

وأأمن الذخائر وأعجب النفائس هو ضريح الإسكندر الكبير؛ شيء نفيس بديع خلاب كله قطعة من الرخام وغطاؤه قطعة أخرى طوله سبع خطوات وعرضه نحو المترين، عليه من النقوش البديعة والصور البارز العجيبة ما يبلبل البال وجعلت عليه قبة من (الزاج)[1] تقيه ما عساه أن يلصقه من الغبار ورسم الدخول لهذا المتحف عشرة غروش من كل نفر.

(1) يقصد الزجاج.

وبعده زرنا المتحف الشرقي؛ وهو مساحة للمتحف المتقدم، فرأينا به أشياء عجيبة من الآثارات الشرقية النفيسة وعلى الأخص سجادتان من صنع شيراز بفارس كبيرة الحجم تاريخ صنعها يرجع للقرن السادس عشر المسيحي، ثم منابر الأبنوس قديمة جداً وأبواب خشبية وأبنوسية مخرمة تراخيم من المطعم بالعاج والصدف وما هو بدونه منها ما يرجع تاريخه للقرن الثالث عشر المسيحي، ثم أسفار للكتب عجيبة مذهبة ويدخل هذا المتحف أيضاً بعشرة غروش عن كل نفر.

ولما خرجنا للمنتزه الكبير المسمى: سراي بروني؛ وهو كبير جداً رصفت أشجاره وحدائقه ترصيفاً بديعاً، وبقربه من جهة اليسار على شاطئ القرن الذهبي تمثال لمصطفى كمال[1] من البرونز منتصب القامة عاري الرأس عجيب الصنعة.

ثم بعد ذلك زرنا مسجد الصحابة بغلطة، وبه ضريح سيدنا عمرو بن العاص[2]،

---

(1) مصطفى كمال أتاتورك: ولد سنة 1881 من أب كان موظفًا بسيطًا في سلانيك، تخرج في المدرسة الحربية العليا برتبة نقيب، ثم سطع نجمه خلال الحرب العالمية الأولى، فبعدما تمكن الحلفاء من تمزيق الإمبراطورية العثمانية وتجزيء الأناضول، المعقل الأخير لقواتها. وفي أماسيه المدينة الواقعة شمال البلاد أعلن مصطفى كمال وعدد من الضباط الوطنيين الذين يؤازرونه تمردهم على السلطان العثماني محمد السادس، وتم الإعلان عن تشكيل حكومة موقتة برئاسة مصطفى كمال في 29 أبريل/ نيسان 1920 م، الذي استطاع تحرير البلاد بعد انتصاره على الأرمن والإيطاليين والإنجليز واليونان، واستولى على إزمير وأحرقها في 9 سبتمبر/ أيلول 1922 م، فأصبح يلقب بـ «الغازي». وضغط الضابط المنتصر على البرلمان، فتم خلع السلطان يوم 17 فبراير/ شباط 1922 م، وتم تشكيل حزب وحيد هو «حزب الشعب التركي»، ووضع رجال الدين عند حدودهم، وفرضت الوقاية، وأممت البنوك. وبعد فترة اتسمت بالعنف والقسوة، أبان الزعيم مصطفى كمال أتاتورك (أب الأتراك) عن وجه المصلح الاجتماعي، فرفع من مستوى عيش الفلاحين، وشق الطرق، وأنشأ السكك الحديدية والمصانع والمحطات الكهربائية، وفرض استعمال الأبجدية اللاتينية عوض الحروف العربية، وبنى المدارس في كل مناطق تركيا، وعمل على تحرير المرأة، فمنع الحجاب، وأوجب على الأتراك اتخاذ أسماء عائلية. وفي سنة 1930 ألغى الرقابة وخلق بنفسه حزبًا ليبراليًا معارضًا، ووقعت الكارثة، ففي غضون أسابيع معدودة، أصبحت البلاد على مشارف الحرب الأهلية، فواجه المعارضة بقمع عنيف. مات مصطفى كمال أتاتورك يوم 10 نوفمبر/ تشرين الثاني 1938. أنظر:

كارل بروكلمان: **تاريخ الشعوب الإسلامية**، م. س، ص 688 - 710. وساط عبد القادر: **موسوعة المعارف الحديثة**، ترجمة مبارك وساط، منشورات عكاظ، الرباط، 2001، المجلد 8، المشاهير 2، ص 107.

(2) عمرو بن العاص: ابن وائل أبو عبد الله، داهية قريش ورجل العالم، صحابي جليل، أسلم سنة ثمان للهجرة، روى نحو أربعين حديثًا، ولاه عمر بن الخطاب فلسطين والأردن، ثم فتح مصر والإسكندرية سنة 21 هـ، وافتتح طرابلس الغرب سنة 24 هـ. توفي سنة 43 هـ وله نحو 100 سنة. الذهبي: **سير أعلام النبلاء** 3 / 54 - 77.

وسيدنا وهب بن هبيرة؛ وهو مسجد قديم بني قبل عهد الفتح العثماني تحت الأرض يهبط إليه بنحو الخمسة عشر من الدرج، ثم به أيضاً ضريح سيدنا سفيان بن عيينة[1] رضي الله عنه بناحية أخرى منه وعليه قبة أجمل وأنفس من الأخرى ارتفاعاً سقف هذا المسجد لا يتجاوز المترين ونصف ومسجد الصحابة هذا يسمى: «برالتي» وبه أيضاً طاولة عليها مثلما للمسجد الحرام بمكة المكرمة بهندسة عجيبة من الخشب والألوان مبني على هيأته، طوله نحو الثلاثة أمتار وعرضه متران وعلوه نحو الستين سنتيمتراً عليه قبة من الزجاج شيء عجيب.

ومنه مضينا لزيارة أول مسجد بنى بالأستانة بعد المتقدم؛ وهو أيضا بغلطة وقد بنته العرب قبل الفتح العثماني ويسمى: عرب جامع، بني أيام سيدنا عمر بن عبد العزيز[2] بناه جند العرب الغزاة، وكانت عدته خمسين ألفاً فلم يرجع منه سوى ألف جندي فقط والباقي منه استشهد بالقتال ومنه من توفي بالأمراض، وهذا المسجد كبير المساحة ذو ثلاثة بلاطات مستطيلة أوسطها واسع جداً سواريه وسقفه مرتفع جداً؛ وهو من الخشب وقد جدد إصلاح منبره ومحرابه من الرخام الأبيض العال وبفنائه الخارجي قبر قديم جداً لعله من عهد العرب مكتوب بجانبه على حجر مستطيل ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[3].

(1) سفيان بن عُيَيْنَة: ابن أبي عمران ميمون مولى محمد بن مزاحم، الإمام الكبير حافظ العصر، شيخ الإسلام أبو محمد الهلالي الكوفي ثم المكي، ولد بالكوفة سنة 107 هـ، روى عن عمرو بن دينار والأسود بن قيس وعبيد الله بن أبي يزيد وغيرهم، وروى عنه الإمام الشافعي ومحمد بن إسحاق وغيرهم. توفي بمكة يوم السبت من جمادى الآخرة سنة 198 هـ، ودفن بالحجون. أنظر ترجمته عند: الذهبي: **سير أعلام النبلاء** 8 / 454 - 475. ابن خلكان: **وفيات الأعيان** 2 / 391 - 393 .**تاريخ بغداد** 9 / 174. ابن النديم: **الفهرست** 1 / 266.

(2) عمر بن عبد العزيز: ابن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ابن كلاب، الإمام الحافظ العلامة المجتهد الزاهد العابد، أمير المؤمنين حقًّا أبو حفص، القرشي الأموي المدني ثم المصري، الخليفة الزاهد الراشد أشج بني أمية، أمه هي أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، ولد بحلوان (قرية بمصر) سنة 63 هـ، وكان ثقة مأمونًا، له فقه وعلم وورع، وروى حديثًا كثيرًا. ولي إمارة المدينة في عهد الوليد بن عبد الملك سبع سنين ثم عزل، بويع بالخلافة بعهد من سليمان، في صفر سنة 99 هـ فمكث فيها سنتين وخمسة أشهر ملأ فيها الأرض عدلاً ورد المظالم، وسن السنن الحسنة. توفي مسمومًا بدير سمعان من أعمال حمص لعشر بقين من رجب سنة 101 هـ، وله حينئذ تسع وثلاثون سنة وستة أشهر. أنظر ترجمته عند: الذهبي: **سير أعلام النبلاء** 5 / 114- 148. جلال الدين السيوطي: **تاريخ الخلفاء**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى، 2005، ص 203 - 218.

(3) سورة الجن، الآية: 18.

الأستانة العلية[1]

ثم زرنا المسجد العظيم المسمى: بيني جامع؛ وهو أفخم منظر وأعجب أثر من الجميع بموقعه وبما استهل عليه من دقة الصناعة وبديع الزخرفة والزليج النادر المثال الذي اكتست به كافة حيطانه وأسواره الضخمة بحلة يا ما أجملها من حلة، وبما فيه من عجيب النقوش الجبصية (المقربص) المموهة بالذهب وأبهج الألوان والطيقان[2] المرصعة تخاريمها وكتاباتها بديع ألوان الزاج العراقي النفيس حتى أنك لا ترى به من الداخل محلاً يوازي قلامة ظفر خال من الزخرفة، منبره من المرمر المحرم بديع النقوش المطعمة بالذهب الإبريز ومحرابه كذلك، أدينا به صلاة عصر يوم الأربعاء رابع عشر نوفمبر ولقد دخله اثنان من (السواح)[3] الأوربيين ونحن في أثناء تأدية الفريضة بقوا وقوفا في مؤخرة المصلين سابحة أفكارهم في بحر عجائب صنعة هذا المسجد العظيم.

وهو كائن في صدر ميدان الجسر الجديد، مبني بأمر والدة[4] السلطان مراد الرابع والسلطان إبراهيم الأول[5] وقد استمر بناؤه زيادة عن خمسين سنة، وموقعه أهم موقع في

---

(1) يتبع، محمد بن يحيى الصقلي.
الثلاثاء 2 رمضان 1347 هـ موافق 12 فبراير/شباط 1929 (3345).

(2) يقصد بها النوافذ.

(3) كذا بالأصل.

(4) هي قوسيم ماه بيكر، اسمها الحقيقي أناستاسيا ولقبت بقوسيم لنعومة بشرتها، ولدت سنة 1589، لم تكن السيدة الأولى عندما تولى السلطان أحمد الحكم، غير أنها استطاعت أن تبلغ هذه المرتبة عندما أنجبت له ثلاثة أبناء هم مراد وسليمان وإبراهيم وثلاث بنات هن عائشة وفاطمة وجوهر. لعبت دورًا كبيرًا في الحياة السياسية للدولة، إذ إنها استطاعت منع ابنها مراد الرابع من قتل أخيه إبراهيم وتدخلت بكل قوة من أجل اعتلاء هذا الأخير العرش بالرغم من مرضه، ثم كانت لها يد في عزله عندما تمادى في تصرفاته الهوجاء. دخلت في صراع مع والدة حفيدها محمد الرابع «خديجة تورخان» مما دفعها إلى تدبير مكيدة لتسميم السلطان، فانكشف أمرها وتم قتلها من قبل خصيان البلاط وبأمر من خديجة تورخان. بنحادة: م. س، ص 305 - 306.

(5) إبراهيم الأول: تولى العرش ما بين 1640 و1648، لم يكن مؤهلاً لإدارة الدولة وتدبير شؤونها، لقب، بـ«دلي» أي الأحمق نظرًا إلى تصرفاته الطائشة. تميز عهده ببداية الحرب على كريت سنة 1648، وهي الحرب التي استمرت مدة أربع وعشرين سنة. وفي سنة 1648 وعقب انتفاضة شعبية ركب موجتها الانكشارية تمت تنحية السلطان إبراهيم بمبادرة من والدته قوسيم، واغتيل في 8 اغسطس/آب وتم تنصيب ابنه محمد الرابع وهو لا يتجاوز السابعة من عمره. بنحادة: م. س، ص 291.

إسطنبول وله مئذنتان؛ وهو مرتفع عن الطريق ويصعد إليه على سلم كبير الدرجات وله بابان أحدهما تجاه الجسر الجديد وواجهة قسم غلطة والآخر في الجهة المقابلة له.

والحاصل أن الأستانة (جسما)[1] ورد في الدليل لها أربعمائة وإحدى وثمانين جامعاً منها تسعة وثمانون محولة (إلى)[2] كنائس.

ثم زرنا المتحف العسكري؛ وهو قريب من متحف الآثار، فرأينا به عجباً من أنواع الأسلحة والذخائر العربية التي استعملها ملوك آل عثمان وما غنموه من حروبهم من كافة الأقطار والأجناس من عهد تأسيس دولتهم إلى الآن.

وكذلك ما غنمه مصطفى كمال بحروبه في سبيل تحرير وطنه ورد غارة اليونان عنه، رأينا به من أصناف المدافع وأنواع البنادق وأقواس النشاب والسيوف والأسلحة والطبول والدرق والدروع والرماح والعجلات وأكسية الجنود والرؤساء وأحذيتهم والبيارق والأعلام للأتراك ولكافة العناصر التي حاربوها في مختلف الأعصر الشيء الكثير الذي لا حصر له.

رأينا به صوراً زيتية قديمة كبيرة الحجم تمثل أعظم الوقائع الحربية لملوك آل عثمان؛ وهم وسط جنودهم يخوضون معامع القتال ينون في جنودهم روح الشجاعة والإقدام، من ذلك واقعة حربية عظيمة للسلطان سليمان القانوني حول مدينة فيينا عاصمة النمسا؛ طولها نحو الخمس أمتار وعرضها قريب من الأربعة، وكذلك صورة أخرى في حجم هاته تمثل الأمير عبد القادر الجزائري والجنرال بيجوا، وهم يتصافحون ويمضون عقد الصلح والسلام وسط ميدان الحرب ومن ناحية كل منهما جنوده مصطفة في أحسن زي وأبدع نظام مشاتا وفرسانا ترى العرب بعمائمهم الكبيرة وبرانسهم الحمراء في هيأة واحدة.

وصور مفردة لكل من اشتهر له الذكر في الحروب التركية من ملوك وقواد ووزراء وضباط وأنفار.

وأعجب شيء به واقعة الدردنيل الهائلة بالحروب العالمية العظمى، التي شخصت بمحل عن يمين الداخل لهذا المتحف تشخيصاً بديعاً بالكهرباء حتى أن [من][3] يراها يكاد يعتقد أنه يرى حقيقة لا مجازاً؛ يرى الجنود التركية قريبة منه باستحكامات حصون سد البحر تستعمل مدافعها الفتاكة والبحر يموج بشتى البواخر الحربية والمهلكات المدمرة

(1) كذا في الأصل، والصواب «جسم».
(2) الصواب: من.
(3) ساقطة من الأصل.

وهي تطلق مدافعها وتصاب بقنابل الأتراك فتلتهب بنيرانها، ومنها ما لم يبقى يرى منه على وجه البحر جزء يسير يشتغل والبحر يفور ويغلي ساخراً ببني الإنسان وما يأتونه من صنوف المحن والمصائب نحو بعضهم بعضاً، ثم بالطبقة العليا منه تمثيل حالة الأتراك وهيأتهم على عهد الإنكشارية وتحكمهم واستبدادهم صوراً مجسمة تمثل أشخاصهم على هيأتها الطبيعية لا ينقصها إلا النطق، ترى شيخ الإسلام في مجلسه يحف به كتابه وأعوانه وكذلك نقيب الأشراف ثم الصدر الأعظم ثم كل وزير على حدته وقاضي القضاة وقائد الجند وكافة الطبقات.

فالجلاد فرائس الخصيان فرائس السقاة وهلم جراً، كل منهم لابس بزته الحقيقية الخاصة به والتي هي (علما)[1] يهتدى به إلى معرفة عادتهم فإذا بهم مائة وثلاثون شخصا.

ورأينا بفسحة في غلطة تمثال لمصطفى كمال والحرية التي أحرزتها أمته، على يده عجيب الصنع يمثل بناية مصطفى من المرمر الأحمر مستديرة من قاعدتها السفلى ذات نتوء من أركانها الأربعة وبعد ارتفاعها بنحو المترين صارت مربعة تعلو أيضا نحو الأربعة أمتار، كل ناحية من نواحي ذلك المربع منفتحة على هيأة محاريب بالمحراب المواجه لناحية الجسر اثني عشر تمثالا من البرونز تمثل شخص مصطفى كمال وعن يمينه عصمت باشا وأركان حربه ثلاثة منهم بالمؤخرة يحملون الرايات التركية ومصطفى كمال وعصمت عاريي الرأس وأركان الحرب بلباسهم العسكري الجديد يرتدون القبعات، وبكل من المحراب الأيمن والأيسر جندي بيده راية منتشرة وهو ينظر إلى الأمام مقدما رجله اليمنى، وبالمحراب الخلفي جمع من الجنود بوسطهم امرأة جالسة تلوح عليها ملامح البؤس والتألم وأخرى أصغر منها سناً وأبرع جمالاً منتصبة القامة، والجنود مستكملة عدتها الحربية من مدافع وبنادق وهم ماضون إلى الأمام، وإنه لتمثال عظيم يدل على براعة وذوق من صنعه.

والحاصل أن بالأستانة من المناظر والمآثر شيء كثير يحتاج إلى استيعابه ووصفه الوقت الطويل وفراغا لا تشوبه شائبة شغل أو عمل مطلقاً.

ويوم الجمعة سادس عشر نوفمبر، بارحنا الأستانة ممتطين قطار سكة حديد الأناضول الساعة التاسعة صباحا ووجهتنا مدينة مرسين.

---

(1) كذا بالأصل، والصواب: علم.

الرحلة الشرقية[1]

أكتفي عن نشر بقية رحلتي الشرقية على صفحات جريدتنا السعادة الغراء، بما نشرته منها خدمة لمواطني الكرام وللحقيقة التي كانوا في ريب منها عن حالة إخواننا الأتراك أخذ الله بيدهم وأرشدهم، إذ ضيق نطاق الجريدة لا يتسع لنشر رحلة طويلة غزيرة المواد كرحلتنا هاته على التتابع عددا بعد عدد.

ولا يسعني في هذا المقام إلا إسداء مزيد الشكر والممنونية لحضرة مديرها الفاضل، الذي تكرم حفظه الله بنشر ما نشر منها تحقيقا لأمل قراء جريدته الكرام.

ثم أشكر على صفحات هاته الجريدة السادة الكرام الأدباء الأعلام بمغربنا السعيد سواء من كاتبنا أو شافهنا منهم في غرض تقريظها أو تحبيذ خطتنا في كتابتها الموجزة حسن عواطفهم وكرم شيمهم. وأسأل الله سبحانه أن يديم حضرتهم للأدب نصيرا وللعلم ركنا مكينا آمين.

ثم إنني أعدهم (بإبدال)[2] غاية المجهود في جمع تلك الرحلة، وتنسيقها وإضافة فصول جغرافية وتاريخية لكل الأقطار التي ورد ذكرها بها، وتزيينها بصور ومناظر تروق لهم ثم تمثيلها للطبع إن شاء الله تعالى، ومنه سبحانه أسأل العون والتسديد والسلام.

(1) عدد 3359 بتاريخ: السبت 13 رمضان 1347 هـ موافق 23 فبراير/شباط 1929م.

(2) هكذا في الأصل، والصواب: ببذل.

المصادر والمراجع

1 ـ **القرآن الكريم برواية ورش عن نافع .**

2 ـ إبراهيم بك حليم: **تاريخ الدولة العثمانية العلية أو التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية**، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة 1، 1988.

3 ـ ابن خلدون عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون المسمى: **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ضبط ومراجعة خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2001، المجلد السابع.

4 ـ ابن خلكان أحمد بن محمد بن أبي بكر: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1977، 8 أجزاء.

5 ـ ابن منظور: **لسان العرب**، تصحيح وتنقيح أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط 3، 1999، 18 جزءا.

6 ـ بروكلمان كارل: **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة 5، 1968.

7 ـ البكري أبو عبيد: **المسالك والممالك**، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، تونس، جزآن، 1992.

8 ـ بنحادة عبد الرحيم: **العثمانيون، المؤسسات والاقتصاد والثقافة**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط 1، 2008.

9 ـ بنعبد الله عبد العزيز: القصر الكبير أول حاضرة في المغرب، **مجلة المناهل**، وزارة الثقافة، الرباط، السنة الأولى، العدد 1، نوفمبر 1974.

10 ـ بنعبد الله عبد العزيز: **الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية (معلمة المدن والقبائل)** و(معلمة الصحراء)، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، 1976.

11 ـ **جريدة السعادة.** الأعداد: 3312 - 3320 - 3326 - 3325 - 3328 - 3329 - 3340 - 3341 - 3345 - 3348 - 3354 - 3359.

12 ـ حجي محمد: **معلمة المغرب،** 23 جزءًا، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا 1989.

13 ـ حركات إبراهيم: **المغرب عبر التاريخ،** دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط 3، 2002، ج 3.

14 ـ حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي،** دار الجيل، بيروت، ومكتبة دار النهضة، القاهرة، ط 13، 1991، ج 3.

15 ـ الحميري محمد بن عبد المنعم: **الروض المعطار في خبر الأقطار،** تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط 1، 1975.

16 ـ الخطيب البغدادي أحمد بن علي: **تاريخ بغداد،** دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ج 10.

17 ـ الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان: **سير أعلام النبلاء،** تقديم وتحقيق بشار عواد معروف، 25 جزءًا، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 11، 1996.

18 ـ رينهارت دوزي: **تكملة المعاجم العربية،** ترجمة محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1980، 10 مجلدات.

19 ـ الزركلي خير الدين: **الأعلام،** دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، 1970.

20 ـ السيوطي جلال الدين: **تاريخ الخلفاء،** تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، الطبعة 1، 2005.

21 ـ الشافعي محمد بن إدريس: **ديوان الشافعي،** اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط 3، 2005.

22 ـ الضعيف محمد بن عبد السلام: **تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة)،** تحقيق وتعليق وتقديم أحمد العماري، دار المأثورات، ط 1، 1986.

23 ـ العجلوني إسماعيل بن محمد الجراحي: **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس،** دار إحياء التراث العربي، جزآن.

24 ـ الفاسي محمد العربي: **مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن،** دراسة وتحقيق الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى 2007 م.

25 ـ مؤلف جماعي: عبد الرحمن ابن زيدان، **سلسلة أعلام المغرب،** نشر مؤسسة أونا، مطبعة إيديال، 1998.

26 ـ مخلوف محمد بن محمد: **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، 1349 هـ، جزآن.

27 ـ الناصري أحمد بن خالد: **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، 3 مجلدات، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997.

28 ـ الوزان الحسن بن محمد الفاسي (ليون الإفريقي): **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب لإسلامي، ط 2، 1983، جزآن.

29 ـ وساط عبد القادر: **موسوعة المعارف الحديثة**، منشورات عكاظ، الرباط، 2001، 20 جزء.

30 ـ ياقوت بن عبد الله الحموي: **معجم البلدان**، 5 مجلدات، دار صادر، بيروت، 1977.

المراجع باللغة الأجنبية

31 _ Guillén Pierre, «Aux origines de l'internationalisation de Tanger: les négociations sur le statut international. 1912 - 1924», in: **Tanger 1800 - 1956,** contribution a l'histoire récent du Maroc. Editions Arabe - Africaines, Casablanca, 1991.

32 _ Le Chatelier Alfred: **Notes sur les villes et tributs du Maroc en 1890,** Angers imprimerie, a Burdin, 1902.

فهرس الأعلام البشرية

ـ أ ـ

إبراهيم الأول: 71.

ابن بطوطة: 15.

ابن خلدون: 25، 30، 57.

ابن رشد: 25، 56.

ابن سينا: 25، 56.

ابن الصباح: 10.

ابن عثمان المكناسي: 10.

أبو السعود أفندي: 61.

أبو أيوب الأنصاري: 26، 55، 61، 62، 62.

أبو القاسم الزياني: 15.

أبو نواس: 39.

أحمد الأول: 25، 59، 60.

أحمد الثالث: 65.

أحمد الثاني: 58، 64.

أحمد بن المأمون البلغيتي العلوي: 33.

أدريانوس: 67.

إدريس الثاني: 53.

إدريس بن جلون (الحاج): 33.

أدهم باشا: 62.

أرطميس: 68.

الإسكندر الكبير: 67، 68.

إسماعيل هنية: 11.

إسماعيل العلوي: 29.

الأصعمي: 38.

ـ ب ـ

بايزيد: 25، 54، 59.

بايزيد الثاني: 61، 64.

بورني (مسيو): 35.

بيجو (الجنرال): 72.

ـ ت ـ

تحسين باشا: 46.

ـ ح ـ

الحسن الأول: 30.

ـ ج ـ

الجاحظ: 56.

جوبيتر: 68.

ـ ر ـ

رستم باشا: 26، 60.

ـ ز ـ

زين العابدين الكتاني: 15.

ـ س ـ

سفيان بن عيينة: 70.
سليم الأول: 64، 65.
سليم إلهامي: 39، 46.
سليمان الثاني: 59، 64.
سليمان القانوني: 25، 26، 59، 60، 72.

ـ ش ـ

شارل الثاني: 29.
شاه إسماعيل: 65.
شاهين باشا: 51.

ـ ع ـ

عبد الله القباج: 34.
عبد الله كنون: 10.
عبد الحفيظ أفندي: 67.
عبد الحميد (السلطان): 62، 65، 67.
عبد الحي الكتاني: 15.
عبد الرحمن بن زيدون: 58.
عبد الرحمن بن هشام: 30.
عبد القادر الجزائري: 72.
عبد المجيد (السلطان): 64، 66.
عثمان الثاني: 25، 59.
عثمان السلطاني: 63.
عثمان بن عفان: 58.
عصمت باشا: 26، 73.
علال الفاسي: 10.
علي باشا: 25، 59.
علي بن أبي طالب: 30، 58.
علي التمكروني: 10.
عمر بن الخطاب: 69.
عمر بن عبد العزيز: 70.
عمرو بن العاص: 69.
عمر رضا كحالة: 14.

ـ ف ـ

فخر الدين الزركلي: 14.
فليبوس: 67، 68.

ـ ق ـ

قسطنطين: 58، 65.

ـ ك ـ

كونساي غوستاف تيفيني: 39.

ـ م ـ

ماتيني (مسيو): 35.
ماركوريل: 67.
محمد حجي: 14.
محمد الحلو الفاسي: 38.
محمد الرابع: 64، 65.
محمد السادس: 69.
محمد الفاتح / الثاني: 25، 26، 58، 63، 64.
محمد بن إبراهيم الفاسي: 38.
محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي: 10.
محمد بن عبد الله العلوي: 11، 30.
محمد بن عبد الكريم الخطابي: 13.
محمد بن يحيى الصقلي: 10، 11، 14، 15، 17، 18، 19، 20، 21، 22، 23، 24، 25، 26، 27، 49.
محمد رشاد الخامس: 61.

محمد صائم بك: 51، 53.
محمود باشا: 52، 59، 64، 66.
المختار السوسي: 10.
مراد الثالث: 66.
مراد الرابع: 66، 71.
مصطفى باشا: 66.
مصطفى كمال: 10، 11، 19، 22، 26، 69، 72، 73.
موحا اوحمو الزياني: 13.

- ن -

نيرون: 41.

- هـ -

هرمس: 68.
هيركول: 68.

- و -

وهب بن هبيرة: 70.

- ي -

يحيى الحواري: 65.
يحيى الصقلي: 14.
يعقوب بن عبد الحق: 30.
يعقوب المنصور: 31.
يلدز: 68.

فهرس الأماكن الجغرافية

- أ -

الآستانة = اسطنبول.

آسيا: 53.

أثينا: 20، 39، 41، 43.

أدرنة: 64.

أزيلا: 32.

إزمير: 69.

إسبانيا: 13، 36.

الإسكندرية: 69.

أفريقيا: 37.

الأردن: 69.

اسطنبول: انظر القسطنطينية.

الأناضول: 61، 69، 73.

الأندلس: 36.

أمريكا: 24، 56.

إنجلترا: 24، 29، 56.

أوروبا: 36، 67.

إيجة (بحر): 19، 41، 47.

إيطاليا: 40.

أيوب سلطان: 21، 61.

- ب -

باتافيا: 35.

البحر الأبيض المتوسط: 19، 36، 37.

البرتغال: 29.

برشلونة: 36.

بغداد: 53، 67.

بلغاريا: 61.

بلغراد: 65.

البليار (جزائر): 36.

بورسعيد: 35.

البوسنة: 61.

بيرة: 17، 19، 20، 21، 22، 39، 41، 43، 46، 47، 52، 53، 61.

- ت -

تامسنا: 31.

تبريز: 65.

تركيا: 10، 11، 14، 17، 18، 22، 23، 24، 27، 29، 47، 54، 69.

تونس: 38.

- ج -

جامع السليمانية: 25، 58.

جاوة: 35.

جبل باكان سطرمبولي: 40.

جبل طارق: 29، 36.
الجزائر: 38.

- ح -

الحجاز: 39.
حسينا: 41.

- د -

الدار البيضاء: 14، 15، 29، 30، 31، 46.
دمشق: 53.
الديار الشرقية: 29.

- ر -

الرباط: 30، 31.
الرمان (وادي): 31.
روتردام: 35.
روسيا: 43.
ريجيواوها: 41.

- س -

سابانج: 35.
سالونيك: 17، 19، 20، 39، 43، 44، 45، 46، 69.
سبتة: 36.
سراي بروني: 69.
سبو (وادي): 31.
سنغافورة: 35.
سوتامبتون: 35.
السودان: 38.
سوريا: 18، 29، 38، 67.
سوق الأربعاء: 31.
السويس: 35.
سكوتاري: 21.
سيدي علال التازي: 31.

- ش -

شناق (قرية): 48.
شيراز: 69.

- ص -

صقلية: 19، 40.
صيدون: 67.
الصين: 67.

- ط -

طرابلس الغرب: 69.
طريفة: 36.
طنجة: 11، 17، 19، 29، 33، 35، 37، 45.

- ع -

العرائش: 32.

- غ -

غاليبولي (قلعة): 49.
غزة: 11.
غلطة: 21، 22، 53، 69، 70.

- ف -

فارس: 65، 69.
فاس: 14، 38، 48، 53، 59.
فرنسا: 13، 24 30، 35، 38، 41، 56.
الفسفور: 52، 53.
فضالة: 32.
فلسطين: 18، 29، 69.

فينيسيا : 40 .
فيينا : 72 .

ـ ق ـ

قاضي كري : 21، 52 .
القاهرة : 53 .
القرن الذهبي : 61، 63، 69 .
القسطنطينية / إسطنبول/ الأستانة : 10، 11 14، 17، 18، 19، 20، 21، 25، 39، 41، 44، 46، 47، 48، 49، 51، 52، 53، 55، 56، 59، 61، 62، 63، 65، 67، 70، 71، 72، 73 .
القصر الكبير : 32 .
القنيطرة : 31 .
القيروان : 53 .

ـ ك ـ

كافا : 59 .
كولمبو : 35 .
كليريا : 41 .
كورنيتوس (ترعة) : 41 .

ـ ل ـ

لوكوس (وادي) : 32 .
ليون : 39 .

ـ م ـ

متحف طوب قبواسراي : 63 .
ماديتوس (قلعة) : 48 .
المحيط الأطلسي : 31 .
مسجد أيا صوفيا : 25، 57 .
مسجد نور عثمانية : 59 .
مراكش : 15 .
مرسيليا : 17، 19، 35، 37، 39، 45 .
مرسين : 73 .
مصر : 18، 29، 38، 69 .
المغرب : 10، 11، 13، 14، 15، 18، 29، 30، 36، 38، 46 .
مرؤوم (قرية) : 48 .
مرمرة (بحر) : 49 .
ملطة : 66 .
مكة : 60، 70 .
مكناس : 58 .
المهدية : 31 .
مورة (جزيرة) : 65 .
ميورقة : 36 .

ـ ن ـ

النمسا : 72 .

ـ هـ ـ

الهرسك : 61 .
الهند : 35، 38، 65 .
الهند الهولندية : 35 .
هولاندا : 35، 37 .

ـ ي ـ

اليابان : 24، 56 .
اليونان : 19، 39، 46، 72 .

فهرس الآيات القرآنية

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾	البقرة	216	44
﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾	آل عمران	140	41
﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا﴾	هود	41	36
﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾	النحل	90	62
﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟﴾	العنكبوت	20	29
﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾	الروم	3	36
﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾	فاطر	17	38
﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾	الجن	18	70



فقد زار الصقلي ـ مثقف مغرب الحماية ـ العاصمة التركية خلال فترة حرجة أي المرحلة الانتقالية من دولة الخلافة ـ الدولة العثمانية ـ ببعدها التاريخي والديني إلى الجمهورية التركية ببعدها العلماني والقومي، وهو الحدث الذي أحدث رجة كبرى داخل تركيا والوطن العربي، ولذلك فقد سعى الصقلي من خلال تدوين رحلته ونشرها بجريدة السعادة إلى إطلاع الرأي العام المغربي على ما حدث في تركيا من انقلاب جذري غيَّر هوية الدولة والمجتمع. وفي هذا السياق تبقى شهادته وثيقة بالغة الأهمية عن المرحلة وعن الواقع التركي بعد إعلان الجمهورية العلمانية من حيث هي دولة شمولية ترفض كل المظاهر الدينية سواء على مستوى الفرد أو الجماعة. إلا أن الرحلة تقدم إسطنبول أيضًا كعاصمة فاتنة وهو ما يعني استمرار لعب هذه العاصمة دورها كعاصمة عالمية بما يتوافر لديها من مآثر ومتاحف تثير من خلالها مشاعر الافتتان (seduction) والغرابة (l'exotisme).

د. مصطفى الغاشي

كاتب من المغرب حائز دكتوراه دوله في التاريخ من كلية الاداب والعلوم الانسانية
جامعة محمد الخامس الرباط